



دنيا جديدة



محمود تيمور

# دُنْيَا جَلِيدَة

مكتبة الطبع والنشر  
مكتبة الآداب ومطبعة دارالاسمى ت ١٢٧٧

---

المطبعة النموذجية  
٦ مكة الشاهريه بالفترة الجديدة



## دنيا جديدة!...

غادر المنزل وقد بنى عزمه على أن ينفذ فكرته!...  
وسار في الطريق زائغ النظرات ، وفي رأسه أتون يتأجج .  
ولكن خطواته كانت متلاحقة محكمة تدل على عزيمة واقتدار ؛  
كأنها خطوات جندي ماضٍ إلى حكومة القتال!...  
إنه يشبه الجندي فيما يقصد إليه ، من أداء مهمة وخوض  
معركة ، ولكن الفارق بينهما أن الجندي يمضي وهو في فسحة من  
الأمل ، أن يعود ظافراً ، يعانق الحياة ، ويقتطف ما فيها من متع  
ومباهج!... أما هو ، فيسير في مثل صلابة الجندي وعزمته ، يَئِد  
أنه يعلم علم اليقين أن ذهابه إلى غير رجعة... خوض معركة  
يخرج منها مهزوماً ، قد طواه الردى!...  
ولكن كيف يعد نفسه مهزوماً ، إذا انتحر؟...  
أليس الموت ، في حقيقة الامر ، أكبر انتصار على الحياة!...  
وماذا لقي من هذه الحياة؟... إنها لخرابة خبيثة ، طالما غادته  
وغررت به... هذه الحياة لقد كانت تنفن في الكيد له ، وتسخر  
من إخفاقه ، وتذيقه ألواناً من التعذيب والإيلام!... هذه الحياة

— ٤ —

لقد كانت تركله وتطوّه ، فينهض مخي الظهر ، معفر الوجه ، لينخفض .  
هامته ثانية لتلك الجنية اللدود ؛ فلا تلبث أن تنحن عليه بسياطها .  
حتى يخر متخنا بجراح الحية والإذلال . . . .

هيات للحياة أن تنال منه منالا بعد اليوم . . . إنه سيقف .  
أمامها وجهها لوجهه ، ويقول لها : لن تستطيعي منذ الآن أن  
تستعبدني وتستمرئي شقائي . . . . كلا ، لن تستطيعي أن تفعلي  
شيئا معي . . . ستقفين أمام رفاقي ، قليلة الحيلة ، عاجزة الوسيلة . . .  
مهما تحاولي فليس في مقدورك أن تلحقني بأي أذى . . . . إنها  
ساعة انتصار لي . . . أليس الموت في حقيقة الأمر أكبر انتصار  
على الحياة ؟ . . .

وحت خطاه إلى حيث ينفذ فكرته . . . ولكن أية جهة  
يختار ؟ . . . إنه يدرى إلى أي ميدان يذهب ؛ ولكنه لا يدرى .  
أي مكان في هذا الميدان يحل فيه ؟ . . .  
بأي أسلوب ينتحر ؟ . . .

ما أكثر الوسائل . . . . أيجتار « الترام » ؟ . . . ومثل في ذهنه  
« الترام » ، وهو يقطع الطريق مثقلا براكيه ؛ كأنه أتان حُبلي  
مكدودة . . . أتان عجفاء نخرة العظام . . . أيسلم لهذه الأتان رقبتة  
طائعا مختارا ؟ . . . أيرضاها لنفسه جلاداً ؟ . . .

هناك السم الزعاف ... هناك المدية الماضية . هناك أفانين بما  
يكفل له بلوغ مأربة المنشود ... وأشرق وجهه بغتة إشراقة  
الظفر ... لم لا يكون النيل جدته العظيم ؟ ... هذا الإله القادر ،  
الذى يتدفق منذ الأزل ، يشق الصحراء الجرداء ، فيجلبها جنات  
فياحة ناضرة ... إنه ليلق بنفسه عن طيب خاطر في هذا الفيض  
الزاهر بالخيرات ... ما أسعده حقاً إذ يشعر بأن ذراعى هذا  
الآب الشفيق ، تضمانه إلى صدره فتخفيانه ؛ فلا يلبث أن يغنى  
فيه ... أى غر أعز من أن يغدو جزءاً من ذلك الإله في قوته  
وعظمته ، يشاركه فيما يغدق على البلاد من نعم وبركات ؟ ...  
لقد جرب حظه في الحياة مراراً ومرات ، فباء بالإخفاق  
المر ... هو الإخفاق دائماً ... ذلك الوحش الهائل الذى  
تجمعت فيه كل مظاهر القسوة والعنف ، ذلك الحيوان الضخم ،  
الذى يماثل الحيوانات المنقرضة ، التى عاشت قبل التاريخ ... إنه  
ليلا حقه حيثما حل ، يراه تارة رابضاً أمامه ، وهو فى ساحة  
الامتحان ، يرمقه بالنظر الشرر ، ويتسم له ابتسامته النكراء ،  
ويكشر عن أنياب قدرة مسنونة كرموس الحراب ... ويخيل إليه  
دائماً أنه يسمع منه فجاً ؛ كأنه يقول له : هاأنذا لك بالمرصاد ...  
هو الإخفاق دائماً ... يعاجله أبدأ فى كسب رزقه ، فى تحقيق

- ٦ -

مآربه... وأخيرا وقد سقط مريضاً وطالت به العلة ، كان يرى ذلك الحيوان المنقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، وقد أرسل خرطوميه يستنزف دمه على مهل ، ويستل روحه في بظه... لقد لازمه ذلك الحيوان في مرضه ، ولم يدعه إلا خرقه إنسانية مهمللة ، لاحوية فيه ولا نشاط... .

ماذا يستحق في هذه الحياة أن يعيش من أجله ؟... إنه يحيا في بيت خاله مع أسرته ، يحيا معهم كالغريب المنبوذ... طالما قرع سمعه قول خاله : لوجه الله أطعمك ، وآويك ، فألى متى... . وطالما تعالت صيحات التذمر والسخرية ، فيخالها دخانا كثيفا ، يتعقد ويحبط به ، حتى لا يستطيع أن يتنفس... وهذا الحيوان المنقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، مترصده أبدا ، تتلاعب ابتسامته النكراء على فمه الغليظ الأدكن ، وهو يكشر عن أنيابه القدرة المسنونة كرموس الحراب... .

وسار الفتى ، ثم سار حتى دنا من ضفة النيل... إن التخيلات الشاحنة ، بهاماتها الملوكية ، لترف بأغصانها ترحابا بمقدمه... . وإن الشمس الغاربة ، بقرصها المتوهج ؛ لكأها نار وليمة تشب لاستقباله... . النيل... نعم ، النيل... في عبابه الزاخر يودع عالم الشر والغناء ، ويستقبل عالم النعيم والخلود ، وهو محوط

— ٧ —

بتلك الأناشيد العذاب ، تردها له أطيا ف لا تراها العيون ؛ —  
تلك الأناشيد التي لا يسمعا إلا من أقبلوا على الأبدية ، بأرواح  
تخلصت من الشوائب ، وشملها الطهر والصفاء ...  
وأصبح من ضفة النيل على قيد خطوات ، وأحس بقدميه  
تتناقلان ، وقد بدأ يغشاه سحر غريب ... واختار مكانه الملاثم ..  
ووقف هناك وقفته الأخيرة ، وعيناه تحدقان في الأمواج المتدفقة ،  
يحاول أن ينفذ إلى أعماقها ... ماذا وراء هذه الأمواج التي  
تتراقص على متن النهر ؟ ...

وانبعشت ضجة غير بعيدة منه ، فتلقت هنية حوله ... إنها  
حركة الطريق ... أناس بين غاد ورائع ومركبات تضج بعجلاتها  
وتصبح بأبواقها ... إنها ضجة الحياة ، ضجة الدنيا ... وابتسم  
ابتسامته هازيء ، ثم عاد يحرق في الماء ...

أحقا أن هذه الدنيا ليست جديرة أن يعيش من أجلها ؟ ...  
إن الناس من أجلها يعيشون ، لأنهم يسعون إلى الرزق كادحين  
مجاهدين ... أليس هو مثلهم إنسانا ؟ ... ألا يستطيع أن يسعى  
كما يسعون كادحاً مجاهداً ؟ ولكن هذا الإخفاق ، هذا الحيوان  
الهائل الكرية : حيوان ما قبل التاريخ ... إنه رابض في طريقه يسد  
عليه المسالك ، ولن يستطيع هو بخور عزيمته أن يتغلب عليه وينجيه

عن الطريق ... أفي مقدور بعوضة أن تساور الأسد الجبار ؟ ...  
 إنه يشعر بالامتعاض والتأفف من نفسه . لماذا رضى أن يكون  
 بعوضة ، على حين يرى الناس من حوله أسودا ضارية ؟ ...  
 وأطال التحديق في الماء أمامه ...

وتحفز ليقفز ، فإذا به يسمع حركة طارئة ... حركة تصحبها  
 همسات وأنات . . وتلفت حوله ، فتبينت عينه في ظلمة الغروب  
 شبحا يضطرب على حافة الشاطئ . عن كذب منه . . . وألقى نفسه  
 يكمّن خلف جذع شجرة ، وأخذ يرقب الشبح من مكنته ، ويحد بصره  
 فإذا الشبح فتاة تنعثر في خطاها . وبين يديها لفيفة تضمها إلى  
 صدرها ضمة رحمة وحنان ... وتوقفت الفتاة ، وأطالت النظر إلى  
 اللفيفة ، ثم مهدت لها مكانا بين الأعشاب النابتة على حافة الشاطئ ،  
 ووضعتها في رفق . وما لبثت أن انحنت عليها تقبلها في شغف ،  
 ونهضت بغتة مندفعة صوب النهر ... وفي لحظة هوت في الماء ،  
 فانبعث لسقوطها صوت مكتوم مفزع ؛ كأنه صوت وتر في  
 قيثارة شد إلى أقصاه حتى انقطع . . . .

وألقى الفتى نفسه يهوى حيث هوت الفتاة ، ويغوص وراءها ،  
 في ذلك الخصم المتلاطم . . . وبعد جهد ومغالبة استطاع أن يصل  
 إليها ، وأن يعود بها إلى الشاطئ ، خائرة القوى ، فاقدة الوعي . . .

وأخذ يسعفها بما هدته إليه الفطرة ، ونجح في مسعاه ؛ فإذا الحياة تضطرب بين جوانج الفتاة . فوضع رأسها على ركبتيه ، وعيناه تتوسمان وجهها ، وقد بدأت مواكب الليل تتزاحم إثر النهار الغارب تطارد فلول الضوء ... ولكن تلك المواكب لم تلبث أن وقفت خاشعة ، أمام ذلك الملك العظيم ، الذي بدأ يعلو من الشرق قرصاً أرجوانياً ، يتهادى في روعة وجلال ... فتصاغرت أمامه جحافل الليل الزاحف ، وأخذت تتزاييل ...

وسطح الضياء الفتى على وجه الفتاة ، فإذا بمجياها هادىء لم يزده امتقاع الإعياء إلا وسامه على وسامة . وكان شعرها البليل مسدلاً حول رأسها تتناثر خصلاته على كتفها ، وقد تدلت بعض هذه الخصلات ، تخفى ما ظهر من صدر ناهد ، كان قد شق القميص وأسفر ...

ورفعت الفتاة جفنيها ، فإذا عنبان زرقاوان تمانلان زرقه السماء الصاحية ، تحتلج أهدابهما الوطاف حولهما ، كأنها أحراس ساهرون على ذلك النبع الفياض ...

ونهضت الفتاة برأسها قليلاً ؛ وهممت جزعة :

أين أنا ؟ ...

فمسح الفتى على شعرها ، وقال في لهجة ظفر ووثوق :

أت في حرز أمين ...

وتلاقت عيناها في ذلك الضوء الفضى الساجى الذى يشع في  
النفس الآمن والصفاء... وجعلت الفتاة تنو إليه في سهوم ؛ وهى  
ما برحت في شبه غيبوبة تختلط حياها الحقائق بالأحلام .. وأطال  
الفتى نظره إلى عيناها ، وأحس بأن هذا النبع قد أخذ يفيض  
بالخيرات ، وإذا هو يرى فيه عوالم جديدة ، ذات سماوات  
وأرضين ، لا عهد له بها من قبل ، وإنه ليسمع من ذلك النبع الفيض  
خبر آلم يمر بسمعه أبهج منه قط ...

ومرت على الفتى فترة ؛ وعيناها موصولتان بعينها ... إنها الحياة  
جياشة تتفتح له ؛ حياة بعيدة عن واديه القديم بقفره وجذبه ...  
واعتلجت في رأسه شتى الخواطر والأفكار ... يا للعجب ...  
إن الله قد بعث به إلى النهر لينقذ حياة هذه الفتاة الناعسة ...  
هناك قوانين قاهرة ، لا يستطيع المرء أن يقع لها على تفسير ...  
السنا مسيرين حقاً لا مخيرين ؟ لقد أنقذ روحاً بشرية من صنع  
الله ... أنقذ مخلوقاً من بنى جنسه ، رد إليه الحياة ثانية ، بعد أن  
أوشكت أن تفر عنه ... إنه غالب الموت فغلبه في هذه المعركة ...  
إن الله أراد لهذه الفتاة الحياة ، فكان هو في ساعته يد الله ...  
إنه يحس قوة الله في جسمه ، وعظمته تسرى في أوصاله ...

— ١١ —

واهتز الفتى اهتزازة اعتداد بنفسه واعتزاز ...  
وسمع الفتاة تمهمهم :  
لم أنقذتني يا سيدى ؟ ...  
فقال، وعينه ما زالتا موصولتين بعينها :  
لم يكن لك أن تجرمى فى حق نفسك هذا الجرم ...  
واستمع لصدى صوته فى نفسه ؛ فكأنه يستمع إلى إنسان  
آخر يتكلم ، كأن جديد ينطق فى لهجة جديدة ...  
أجابت الفتاة :  
وهل من العدل أن يحيا المرء فى هذه الدنيا ، يعانى الظلم  
ويشوق ؟ ...  
— ليس لنا أن نتخير ، بل أن نصبر على ما نحن فيه ...  
ثم نجاهد ، ونكافح ، ونأمل ...  
— لقد جاهدت ، فبؤت بالخيبة ، وفقدت كل أمل ...  
حاولى أن تخلقى الأمل خلقا ، وأن تصيدى السعادة  
تصيدا ...  
— حاولت فأخفقت ...  
— حاولى أيضا ولا تنسى ... يجب أن يكون فى قلبك  
إيمان بأن الحياة ليست عبثا ...

— كيف ؟

— فكرى لحظة ... إن الله لم يخلقنا فى هذه الدنيا سدى ،  
والإلهامى حكمته فى أن يقذف بنا فى هذا التيار ، نصارعه ونصاوله ،  
دون جدوى ؟ ... إن لكل منارسة يؤديها . . .

— وهل مخلوقة حقيرة مثلى رسالة ؟ ...

— أحقر كائن فى الأرض له رسالة يجب أن يؤديها ، وإن  
خنى علينا وعليه أمرها ...

وغنمت الفتاة :

رسالة ؟ ... أنا أودى رسالة ؟ ...

وبغته تلفتت حولها متفرعة ، وصاحت :

طفلى !

وهرع الفتى والفتاة إلى مكان اللقيفة ، فأنفيا الطفلة مدرجة  
فى لفائفها ، ناعمة العين بالنظر إلى القمر ، مبهورة بضوئه اللألاء ،  
تتحرك يدها فى فرحة ، وهى مستغرقة فى مناغاة ومناجاة ...  
فالتقطت الأم طفلتها ، واحتوتها فى صدرها ، وجعلت  
تغمرها بقبابها الحنون ...

ثم شرعت تقص على الفتى قصة ذلك البؤس الذى دفعها إلى  
القضاء على نفسها ... إنها قصة شائعة تناخض فى كليات قلاتل :

— ١٣ —

حب ، فعبث بالفضيلة ، فافتضح ، فطرد من بيت الأسرة ، فتخل  
من الحبيب . . .

فأمسك يدها يلاطفها وهو يقول ، وقد أشار إلى الطفلة ،  
يداعب وجنتها :

ألا تعترفين معي بأن في الحياة نواحي جميلة طيبة ، وأن الله  
لم يخلقنا فيها سدى ؟ . . .

كان الفتى قد ترك في بيته كتابا ، يخبر أهله فيه بأنه معترزم  
التخلص من الحياة ، وكانت الفتاة قد تركت أيضا في بيتها مثل هذا الكتاب .  
إذن لقد اتحرا . . . تخلصا من دنياهما القديمة التي شقيا بها ،  
وشقيت بهما حينما من الدهر . . .

لقد أنقذ الفتى روحين ، وإنه لمسئول عن مصيرهما . . .  
ونهما . . . وطفقا يسيران ، هو يخطو مرفوع الهامة . تتقد عيناه  
عزما وحيوية ، وهي بجانبه معتمدة على ذراعه ، يشرق على محياها  
سما الطمأنينة . . .

إنهما يسيران ! . . .

يسيران ، وقلباهما يخفقان بشعور واحد ، شعور نقي ناصع ؛  
كضياء هذا الكوكب المتألق الذي يغمرهما بفيضه اللؤلئى . . .  
يسيران نحو دنيا جديدة ! . . .



## شيخ الخفَر

إنها قصة تراخى بها العهد ، وقعت أحداثها في ضيعة ضئيلة الشأن . تكاد تنتهى بها تخوم العمران ! ...

كان الحياة في هذه الضيعة تجري على الأساليب العتيقة في الفلاحة والإدارة ، يد أنها مع ذلك كلها كانت قنوطا بما تيسر لها من وسائل العيش ، فتوافر بذلك حظها من هناءة وأمان ! ...

عاشت الضيعة ترفرف عليها السكينة والطمأنينة ، يتآزر أهلها على المعاش ، وتصل بينهم وشائج ، ومودة وإيلاف ، فلا ضغائن مطوية ، ولا شقاق يفضى إلى فرقة وانقسام ! ...

قام على رأس هذه الضيعة السعيدة ناظر أربى على السبعين من عمره ، فحل من قومه محل الأدب من بنيه ، يهضم لهم الحنان والرحمة ، ولكنه يسوسهم بما تقتضيه الحكمة والحزم في عدل وإنصاف ...

وهو على الرغم من علو سنه ، جم النشاط ، متوقد الذهن ، يعيش حياة الفلاح ، ويقوم بعمله ، ولا يتميز في مطعمه وملبسه ومسكنه عن سائر سكان الضيعة ! ... فأحبه قومه ، وأذعنوا له بالطوع ، وهابوا كلمته في أمره ونبيه ...

— ١٦ —

نهض الناظر بواجب منصبه ، معولا على نفسه ، غير مفتقر  
إلى جمع من الكتبة والأعوان يحفون من حوله ... فإذا رغب في  
عون دعا إليه ارتجالا بعض الزفاق ؛ فيبتدرونه ويعينونه ، في غير  
كلفة ولا تعقيد ... ومن ثم كان في غنية عن موظفين ، تناط  
بهم أعمال ...

وما كان الناظر بغافل عما تستمتع به الضيعة من هناءة ، فكان  
يزهى بذلك بين الحين والحين ، ويردد كلمته الخالدة :  
كل شيء يجرى بالبركة ...

آتت هذه البركة ثمراتها الطيبة في شيوع الأمن واستتباب  
السكينة ، فلم يعكر صفو الضيعة أى حدث من الأحداث المروعة  
في عهد ذلك الناظر المبارك ...

وحان يوم قضى فيه الرجل نحبه ، فتلقت الضيعة نعيه في ذهلة  
ووجوم ؛ ولكنها استلهمت في رزئها الكبير إيمانها العميق ،  
وودعت بموت هذا الناظر عهدا مذكورا بالخير ، وتطلعت إلى عهد  
جديد ، لا تدري مصيرها فيه ، مستسلمة إلى أنه ليس لحال  
دوام ...

وصبحاً هبط الضيعة شاب ، في معة "صبا" يرتدى الحلة الإفريقية  
ويحمل على رأسه القبعة المجنحة .. فأقبل مفتول الساعد ، مرفوع

الهامة ، مز هو الخطأ ، مدلابما يتميز به عن هؤلاء الناس ، من كسب العلم والتحضر ، وفي يده سوط صغير ، يتلاعب به ذات اليمين وذات الشمال ...

وسرعان ما أعلن أنه الناظر الجديد ...

فاحتشد إليه القوم ، رانية أبصارهم يتفحصونه في دهشة وعجب ... ليس عهدهم بعيدا بناظر ضيعتهم الراحل ... ولقد استقر في أذهانهم أن الناظر ، لابد أن يكون على غرار شيوخنا أشيب ، يعتم على لبدة ، ويضع على منكبيه العباءة ، ويتخذ عصاه من أغصان الشجر ... فبال هذا الفتى الأمر ، بدعى ما ليس له بأهل ؟ ...

وفرق الناظر الجديد سوطه ، فأيقظ القوم ، وباغتهم بقوله : أين حضرة المعاون ؟ ...

فاختلط الجمع ؛ وأقبل بعضهم على بعض يتسألون ...  
فاسألف الناظر صبيحته السكراء . قائلا .  
أقول لكم أين حضرة المعاون ؟ ...

فتعالى همس القوم في حيرة وتعجب ... وبعد لاي ، برز من بين الصفوف شيخ يخب في « زعبوته » ، ورأسه ينط من تحت عمامة ضخمة ، وتقدم بلحيته المبعثرة ، ووجهه المغضن ، يقول :

— ١٨ —

ليس لدينا معاون ...  
 فاستنكر الشاب ما بلغ سمعه ، وعاجل الشيخ بقوله :  
 ماذا تقول ؟ ... أضيعة بلا معاون ؟ ...  
 فأجابه الشيخ ركين اللهجة :  
 عشنا لا نعرف رجلا له هذا اللقب ...  
 فارتفعت جمجمة الشاب وهو يقهقه ، وفرق ثانية بسوطه  
 قائلا : علىّ بأمين المخازن ...  
 فغض الشيخ من بصره ، وجعل يفرّك يديه قائلا : وهذا  
 أيضا لا وجود له ...  
 — أترعون أنكم لا تعرفون رجلا ، له هذا اللقب أيضا ؟ ...  
 — صديق أتنا لا نعرف له من وجود ...  
 فاحتقن وجه الشاب ، وصاح في صوت الثائر المخنق :  
 ومن عنده مفاتيح المخازن ؟ ... أتعون أنكم لا تعرفون  
 للضيعة مخازن ولا مفاتيح ؟ ...  
 فنشخص الشيخ ببصره ، قائلا :  
 هوّن عليك يا بني ... في الضيعة مخازن لها مفاتيح ، ولقد كانت  
 في حوزة الناظر المرحوم ، أتريد أن تتسلها ؟ ... إنها أمانة  
 عندي ...

— ١٩ —

وأنت ... من تكون ؟ ...

- أنا شيخ الجامع ...

فبعث الشاب من حلقه صيحة ساخرة ، وقال :

ما شاء الله كان ... مفاتيح المخازن بيد شيخ الجامع ؟ ...

هاتها يا رجل ...

فانصرف الشيخ ، ليأتى بالمفاتيح ، وطفق الناظر يذرع الأرض  
جيشه وذهوياً ، وهو يتلفت حوله تلفت الممتعض المشتم ، وجعل  
يغمغم :

فوضى ... فوضى ... يبدو لي أنه لابد أن أنشيء الضيعة

لإنشاء جديد ...

ثم صاح بالجمع ، قائلاً :

أليس في الضيعة موظف مسئول ، أستطيع أن أفهم منه

ما أريد ؟ ... ألم يكن للضيعة كاتب ؟ ...

فخرج من الصفوف شيخ نحيل يتجامل على نفسه ، وقال :

كان المرحوم يدعوني أحياناً لأقيد له بعض حساب الضيعة ...

فجار الناظر يقول في تهكم :

الحمد لله ... وجدنا أخيراً من نسأله ...

وراح يلاحظ الرجل بالنظر الشرر ، ثم أشار إليه قائلاً :

تقدمنى إلى الإدارة تتصفح الدفاتر ...

وهنا لك فى حجرة بالغة السذاجة ، دخل الرجلان ، فتلفت  
الناظر يبحث عن مجلس له ، فلم يجد إلا دكة متخلعة ، ورقا عليه  
بعض الأوراق والدفاتر . تعلوها غبرة ، فاستنكف أن يجلس ،  
ولبت واقفاً يقلب تلك الدفاتر والأوراق ، ويلقى عليها خواطف  
النظرات ، ثم يقذف بها يمنة ويسرة فى تأفف وازدراء ...  
وبينا هو كذلك ، إذ هرول إليه شيخ الجامع يحمل حزمة من  
مفاتح ضخمة ، قدمها إليه ، وما إن أبصرها الناظر الشاب حتى  
صاح مقهقها :

مفاتح من خشب ؟ ... فى أى زمن تعيشون ؟ ...  
وازورّ يبصره عنها يذرع الحجرة ، مهتاج الخطوات ، ثم وقف  
أمام الرجلين يحديق فيهما برهة ، وقال :  
سترى الضيعة عجبا ... لأنقلها من عهد جهالة وظلام ، إلى  
عهد حضارة ونور ...

وعلا يده على جبينه يعتصره ، ثم صاح قائلا :  
على بشيخ الخضر ...  
فطأطأ الشيخان رأسهما ، وأمعنا فى فرك أيديهما ...  
ولما طال بهما الصمت ، صاح الناظر وقد بلغت به

الحيرة والعجب كل مبلغ :  
 أنجسران على أن تدعي أن ليس في الضيعة خفراء ؟ ... حراس ؟  
 فارتفعت عمامة شيخ الجامع ، وتجلّى عجايبه المغضن ، تكسوه  
 طمأنينة الإيمان ، ثم همس بقوله :  
 الحارس هو الله !

فمَرَق الناظر بسوطه فرقة ريع لها الشيطان ، وبصق بصقة  
 هوجاء ، وانفعل من الحجرة كالسهم المارق ...  
 اعتكف الناظر الجديد أياماً في مثواه لا يريه ، وهو منكب  
 يدبج تقريراً مسهباً في شأن الضيعة ، وما تفتقر إليه من خطة إصلاح  
 انتشالا لها بما هي متردية فيه من فوضى وخراب ...  
 وقد ترادفت في تقريره كلمات ، لم يربدا من الإلحاح في بيانها  
 والإشادة بأثرها ، من مثل : « تحديد المسئولية » ، و « تعيين جهات  
 الاختصاص » ، و « توزيع السلطات » ، و « تعزيز السلطة التنفيذية » .  
 وخلص من ذلك إلى أن أول ما يجب القيام به هو إنشاء قوة  
 خفر نظامية ، تكون عوناً للسلطة التنفيذية على الاضطلاع بمهامها  
 الجسام ، والضرب على أيدي من تحدّثهم أنفسهم بالوقوف في طريق  
 الإصلاح والتعمير ...

وبعث الناظر الشاب بتقريره إلى ربّ الضيعة في العاصمة ، ونهض

يستثنى نسيم الراحة والاستجمام ؛ كأنما يعد نفسه لذلك العمل الجبار ، الذى رسم خطته فى تقريره العظيم . . .

قضى الناظر أسبوعه الأول منهمكا يفكر ويدبر ؛ لتحقيق أول خطوة فى خطة الإصلاح ، تلك هى إنشاء قوة الخفر . . .

وكان أول ما عنى به اختبار زى للخبراء الجدد ، يوفر لهم المهابة المنشودة ، ويميزهم عن سائر خلق الله . . .

وما إن اطمأن إلى الزى ، حتى شرع يعرض فتیان الضيعة الأشداء ، ويصطفى من ينجحون فى اختياراته «السيكولوجية» لمعرفة حدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، وما أوتوا من مواهب فى الضبط والربط وسعة الحيلة . .

وبعد أن باع من ذلك مأربه ، وتخبر جمعا من الفتیان ، توافرت لهم كل تلك الشرائط ، راح يفكر أيهم يؤمره عليهم شيخا ؟ . . . وجعل معوله فى الاختيار على قوة بصيرته ، التى يعتز بها وينزهها عن الزلل . فوقع اختياره على قى لم يكن أقدر الجمع ولا أسنهم . وإنما هى قوة بصيرة النظرة الشاب ، رأته فيه مالم ير سائر الناس . . ووقف الناظر الشاب ، أمام صف الخبراء ، فجذب إليه ذلك الفتى المخطوط ، وصاح به :

لقد احترت ك شيخا للخفر ، فأدرك مهمتك حق إدراكها . . .

— ٢٣ —

إن الجندية أساسها الطاعة والنظام ، دون جدل أو نقاش . . . .  
وعلى كل أن يلزم حده . وأئن يعرف واجبه . . . .

وفي اليوم التالي ، تجلى شيخ الخضر في الدوار ، يزهو بلبدته  
التي حملت شارة الرياسة ، وفي يده هراوة صلبة فارعة ؛  
كأنها رمح القائد المظفر ، وهو يتخطر في معطفه السابغ الأدكن ،  
وئيد الخطأ ، وخلفه شرذمة الخفراء ، يملو وجوههم البشر ، وهم  
معجبون بما يكسسون من زى جديد . . . .

وما إن توسط الخفراء ساحة الدوار ، حتى أهل عليهم الناظر  
الشاب وفي يده سوطه يتلاعب به ، وبدأ يعرض صفهم ، ثم  
وقف مهلل الوجه تتألق عيناه ، وصاح :

انتباهاً . . . .

وابتدأ معهم حصة التدريب ، فتعالت دبدبة الأقدام ،  
وترأت السواعد تفتى وتنبسط ، ونحركات الأجسام تعلو وتنبط ،  
وتعقد الغبار في الجو كأنما أثارته حرب ضروس .  
وفي أثناء تلك المجمععة كان الناظر الشاب يجأر بصوته في  
الفضاء ، فتتردد أصدائه في الأرجاء ، إذ يقول :

إلى اليمين در . . . .

إلى الأمام سر . . . .

خطوة إلى الخلف . . .

أربعاء تشكيل . . .

سريعاً . . .

تعظيم سلام . . .

وكانت سطوح الدوار، وأسواره، قد عشتت على حافاتها  
زمر من الصبية تطلع، وقد بهرها مآرى من منظر عجيب . . .  
لبث الناظر الشاب يمارس التدريب ساعة من نهار، ثم  
استخلف مكانه شيخ الخفراء، يواصل العمل على النحو  
المرسوم . . . وانصرم النهار، وشيخ الخفر مجدّ في تدريب فرقته،  
لا تهدأ له حركة، ولا يخفت له صوت . . .

وراح إلى داره في غيوب الشمس، منشقق الحلق من متابعة  
الضجيج والصياح، منهوك القوى، تكاد تنفصم ركبته من طول  
الانشاء والدوران . . . ولكنه على الرغم من ذلك، أقبل على الدار  
مشرئباً ملتحم العين، فاستقبلته زوجته، التف حول بهنوه، يتجسسون  
بمعطفه، ويتواثبون عليه، تطلعا إلى لبدته، ذات الشارة الحمراء . . .  
فطفق الرجل يتحدث إلى زوجته في مهام منصبه، وكيف أن  
الجدية أساسها الطاعة والنظام . . . ومالبت أن بدا في إشاراته  
وحركاته ونبرات صوته محاكياً ناظر الضيعة الجديد. وجعل

يدرس في أحاديثه تلك الجمل الرنانة والألفاظ البراقة التي صاغت  
سمعه أول مرة في هذا اليوم ؛ من مثل وأربعات تشكّل خطوات  
إلى الخلف ، تعظيم سلام ،... فكانت أسرته تصغى إليه في نشوة  
والعيون إليه رانية . . . .

ولما حضرت صبيحة العشاء ، وتحلق حولها الجمع مفترشين الحصر ، أبي  
رب الدار إلا أن يحضر والده ، مقعدا يرتفع به عن أديم الأرض . . .  
استنفذ تدريب الخفر جهد الناظر كله ، فكلمها فرغ من جانب  
عرض له جانب جديد . . .

وكان لا يسير في الضيقة ، أو يجوس خلال الجمل ، إلا  
مصطحبا شزيمة من أولئك الخفراء المدربين ، تتقدمه أو تقف خلفه .  
فأما شيخ الخفر ، فظل يتلقى تعاليم الناظر في شأن مهمته ،  
وينهمك في تنفيذها بين مروسية في همة ومضاء ، فإذا أتم عمله ،  
وانخذ سبيله إلى داره . أحس الأعين رمة بنظرات خشية وتهيب ،  
ويرى الصبية لا يكادون يلبحون شبحه حتى يلوذوا بالفرار  
مخلين له وجه الطريق . . . .

ويوما ، وهو يدرّب فرقة ، لم يرض عن أحد الخفراء ،  
ورماه بالنقصير ، وجاوز في تعنيفه الحد ، وكان الخفير أسن منه  
وأصلب عودا ، فلم يعتم ذلك الخفير أن أغلظ له في القول ، وما

هى إلا أن هجم عليه شيخ الخفر، وهوى على صدغه بلطمة شديدة، وسرعان ما التحم الخصمان، واستبد بهما العراك...  
 و انتهى إلى الناظر الخبر، فقدم على عجل، وفرق بين المتضاربين، ثم لم يلبث أن أصدر أمره بفصل الخفير، فصلا مشغولاً بالإنفاذ؛ لأنه خالف أول مادة في قانون الجندية، وهى الطاعة والنظام، دون جدل أو نقاش...

وتقدم إلى الصف فانتزع الخفير منه، وجرده من شارة الخفارة، ومن زياها الرسمي، كما يجرد القائد جنديهِ المتمرد من شاراته، وينتزع منه ما معه من السلاح...

ومضى الخفير الطريق مبهض الجناح، يتضرم قلبه حقدا وضغينة... وفى جوف الليل أمام النار المتقدة التف بعض الحفراء يصطالون ويخوضون فى حادثة النهار، فقال أحدهم:

ليس من حق شيخ الخفر أن يصفع واحدا منا...  
 فأجابه رفيق له:

ولكنهم يزعمون أن الطاعة أساس الجندية الصحيحة...  
 فصاح ثالث:

مهما يكن أمره، فما يجوز لأحد أن يهين خلقه الله...  
 فقال الأول:

الحق أن شيخ الخفر جاوز الحد ، وأنه صال واستطال ، مع أنه ليس أهلاً لمنصبه ، وأنه ليس فينا من يقل عنه اقتداراً وقوة .  
فقال الثالث :

حقاً خدع الناظر في شأنه ، وسينتبه إلى خطئه في اختياره .  
فقال رابع آخر ، وكان برأيه ضئيلاً :

لا تدسوا أن مرتب شيخ الخفر ضعف مرتب الخفير ، على حين أنه ليس له من عمل إلا الجمعجة والتأمر .

ولمح الجمع شجراً في الطريق ، فسكتوا يمينون شخصيته ،  
فإذا هو الخفير الطريد ، فدعوه إلى الجلوس ، فاستجاب . . .  
كثر بينهم همس ، تخلله خجج الكيد والفساد . . .

تقصت أيام ، لم يجرؤ فيها أحد على أن يطالع الناظر بشكاة .  
أو يرفع إليه ظلامه ، ولكن الضيعة عاشت هذه الأيام ، تحت ستار من الأسرار . . .

وتواصل العمل في تدريب الخفراء ، بهمة ونشاط ، وأحسن شيخ الخفر سطوة سلطانه ، فازداد من صلف وعتو ، وتناجست منه صنوف الإهانات من ركلٍ وصفع وطرد ، يستخوبها على مرءوسيه في تجن وتقوّل وادعاء ، واجداً من ناظر الضيعة ظهراً ، يواليه بالرضا والتأييد . . .

وسرّت بين سكان الضيعة هيبة شيخ الحفر وجاهه ، فتفرب  
إليه الناس جماعات ، وخصوه بأنواع الزاني ، وأصبح بيته مقصدا  
لطلاب الشفاعات في شئون الضيعة ، ما يتصل بإدارتها ، ومرفأ  
لكثير من الهدايا والإتحافات من خيرات الريف ...

ومرة عذف الناظر بشيخ الحفر ، في بعض الأمور ، فلم يرقه  
ذلك ، وبدت عليه بوادر التمر ، ونسى - في غشية الزهو  
والسلطة - أنه بين يدي رئيسه ، وتضاءلت في مخيلته تلك الحكمة  
القائلة بأن الطاعة أساس الجندية ...

وانتهى الأمر بالناظر وشيخ الحفر ، إلى جفوة تطاير غبارها ،  
وتسامع بها الناس .

وما أسرع أن تهاوت الظلامات تصابح الناظر وتماسيه ، مهيبة  
به أن يضع حداً لذلك الجبار العنيد الذي عاث في الضيعة فسادا ...  
وفكر الناظر في أمر شيخ الحفر طويلا ، وأسلمه التفكير  
إلى رأى حاسم ، هو إحالة ذلك الرجل إلى مجلس تأديب ...  
وانعقد المجلس ، فتولى الناظر رياسته . متنفخا في جلسته ، وعن  
يمينه شيخ الجامع ، يرضح تحت ثقل عمامته ، وعن يساره ذلك  
الشيخ الذي يقوم بأعمال الكتابة في الضيعة ، تكاد تخطئه العيون  
لضموره وانكماشه ...

وبدأ سـ يز، وهـ الجيم، تتقاذف بها الإلسن في تلك  
الحجرة المعتمة المندمة، التي يكاد سقفاها يخر، وقد وقف المتهم  
يحاصره جمع من الشهود...!

وانصل ضوء النهار، وما برحت المحكمة جادة تحقق وتناقش،  
وقد اختنق الجو بالأنفاس، وتحلب العرق من الجباه، وبدأ  
الناظر محتقن الوجه، مضطرم العينين، ففك أزرار قميصه، وشمر  
كفيه، وهو منخرط في عمله، يهيمن على نظام الجلسة، ويلقي أشتاتا  
من الأوامر والنواهي، في حمية وحماس...!

وأخيرا رأى رئيس الجلسة أن يختل بنفسه، لبصدر حكمه في  
قضية اليوم، فأمر بإخلاء المكان.

وبعد هنيهة أذن للجمع في الحضور، لإعلان الحكم، فاعتصب  
الحجرة بوافديها، وتجمع الناس حولها، يسدون منافذها، ويرهفون  
الاسماع...!

وما نهي إلا أن انتلى الناظر مقعده، ووقف يقرأ ورقة في  
يده، وبعد أن أشع نهمه من تكرار: «من حيث إن...» أعلن  
حكمه القاضي بفصل شبح الخفر، وإلزامه دفع غرامة جسيمة...  
فدوت في الحجرة ضجة عارمة، وتعالى أصوات تهتف  
بحياة العدالة، وأخرى تهتف بسقوط الطاغية البغيض...!

واخترق الناظر زحمة اللباس ، وهو يضرب الأرض بخطايقال،  
ويتلاعب بسوطه في احتياج ، وقصد إلى منزله من هو النفس ،  
ولكنه ما كاد يبلغ المقعد حتى ارتدى عليه منسرق القوى ...  
وسهرت الضيعة ليلتها تتحدث في شأن من يخلف شيخ الخفر  
المعزول ، فتحلقت الجماعات على المصاطب ، واختلطت الأصوات  
في مجادلة وحوار ، تحاول كل فئة أن ترشح من تهوى وتعمل على  
إحباط غيره من المرشحين لهذا المنصب الخطير الذي تعرفت  
الضيعة مكانته وأثره في التسلط والاعتنام ...

وتسللت الأشباح زرافات وفرادى إلى بيت الناظر ، يطويهم  
الباب في مسطرة وحذر ...

وظلت حجرة الناظر تبعث شعاع مصباحها حتى جوف الليل ،  
وطيف الناظر يترامى وراء النافذة في جيئة وذهوب ...

وبكر الناس في رونق الصبح يتجمعون تجاه البيت ، مرتقبين  
مهيبة الناظر ، ليروا ماذا يبت من رأى في اختيار شيخ الخفر الجديد.  
فما إن لمحوه مقبلا حتى تكاثرت عليه الجوع ، تستخبره في تعريض  
وتلبيح . فضى عنهم مشمخر الأنف ، محفظا بالسر العظيم ...  
وقصد الحجرة التي كانت أمس محكمة الفصل في قضية شيخ  
الخفر ، وهناك أعلن على الملأ أنه قد تخير الخفير الطريد شيخا للخفر؛

فكأنما رمى بذلك إلى أن ينصف مظلوماً ، هضم حقه الشيخ  
المفصول ، حتى يطمئن الناس إلى أن العدل أساس الإدارة ، في  
عهد ناظر الضيعة الجديد ، ومخرجها من حال إلى حال .

وما كاد الناظر يعلن ذلك حتى تبدت علامة الدهشة على الوجوه .  
فما كان في حساب أحد أن يقع الاختيار على ذلك الخفير الذي  
طرده من قبل . ولقد رشحت كل جماعة واحداً ، فلم يكن ذلك الرجل  
أحد المرشحين جميعاً ...

وظل المهرج والمرج ينتهب الجموع ، حتى فرقع الناظر بسوطه ،  
فراجع الناس ، وثاب إليهم الهدوء .

واكتسى الشيخ الجديد معطفه الساخن ، وسوى على رأسه  
لبدته ذات الشارة الحمراء ، وأخذ بيده المراوة الفارغة ... وسرعان  
ما شهدت ساحة الدوائر ، ثانية جمع الخفراء ، يزاولون التدريب ،  
وتجاوبت الأرجاء بالكلمات الخالدة :

إلى الدين در ...

إلى الإمام سر ...

سريعاً قف ...

تعظيم سلام ...

وآب شيخ الخفر الجديد إلى بيته ، يومئذ بانتحية يمنة ويسرة

لمن وقفوا له . وما كاد يابح باب الدار ، حتى استقبلته حشود من  
القصّاد ، يحملون له الهدايا والطرف ، ويعاجلونه بعبارات التهنة  
والدعاء . . . .

تواردت الأيام تزوع شيخ الخفر المفصول بألوان الاضطهادات  
والإهانات يتقصده بها شيخ الخفر الجديد ، يؤازره أصحاب الثارات  
والاحقاد ، بمن كان يظفي عليهم الشيخ الاول ، إبان حوْله  
وطوله . . .

وتبدلت حال شيخ الخفر الجديد . فترات في بيته أنعم طارئة ،  
وعرف طريقه طلاب الحاجات والشفاعات ، والتف حوله  
الشبيعة والأنصار . . .

وأصبح منصب شياخة الخفر ذائع الصيت ، قوى النفوذ ،  
يجتذب بالألائه النواظر ، فهفت إليه القلوب ، وتعلقت به الهمم ،  
وتكاثرت حوله الأطلماع . . .

وربعت الضيعة مرات بأحداث السرقات ، وتقلع الزروع ،  
وتغريق الحقول . . . وما إلى ذلك من ضروب الحكيك  
والإيذاء . . . .

وتوالت على بيت الناظر عرائض الشكاة والالهام ، تمس شيخ  
الخفر ، وترميه بكل نقيصة شنعاء . فكان الناظر يقضى ساعاته الطوال

يتصفح تلك العرائض ؛ يذيلها بملاحظات وتقريراته ؛ يجتهد في الموازنة والتأويل والاستخراج ...

واستيقظت الفتنة في قلب الضيعة ، وتبادل الناس الخوف والحذر ، وتسلسل التباغض إلى جماعة الخفراء ، فانقسموا على أنفسهم شر انقسام ، وراح يتكيد بعضهم لبعض ، فتفتن شيخ الخفر إلى ذلك كله ، وخشى سوء المفبة ، وتمثل مصير سلفه ، فاتخذ للأمر أهبة ، وجعل يتحوط ويتحفظ ، وتذرع بشئ الوسائل ، من بعث للعيون ، وإغراء بالغنائم ، وحبك للسكايد ، وتأليب لنفر على نقر ؛ حتى يحتفظ بمنصبه ، ويقبض على نواصي الأمور ...

وأنس الناظر وميض النار خلال الرماد ، فضاغف عدد الخفراء ، وظهر في الملا يحمل إلى جنبه غداة ضخمة ، يكف بها غائنة العيون ... :

وكان - في كل فرصة تلوح له - يؤكد أنه لن يألو جهداً في إقرار الهدوء والنظام. فلانجاح لعمل إلا في ظلال الأمن والسلام ...

وليلة هب الناظر من رقاده قبيل السحر مذعوراً ، إذ أنهى إليه بعض الخفراء أن سطواً وقع على بيت شيخ الخفر ، وأن البحث جار عن المعتدين ، حول منازل شيخ الخفر المفصول ونصراته ...

وما إن أتم الحفر أقوله، حتى سمعت ضجة عنيفة وتضارب بالعصى  
 الغلاظ، وقد انطلقت أصوات النساء في ولولة وتصاريح انتحاب...  
 فأسرع الناظر يرتدى ملابسه وهروا إلى مساكن الضيعة،  
 فألنى الثورة في عنفوانها، والمركة تدور رحاها حامية الوطيس،  
 فاقتحم الزحام في جرة وإقدام، وراح يزأربصوته ينهى ويأمر،  
 فلم يعبأ به أحد وذاب صوته في حرارة العراك والمطاحنة،  
 وأراد أن يستنجد بغدارته، فما كاد يمسكها في يده، حتى وجدها  
 قد أفلتت منه، وذهبت أدراج الزحمة والاختلاط...!

وأحسن الجماهير تعنصره وتضغطه، فحاول ثانية أن يصرخ،  
 فتعثر صوته في حلقه، فأراد أن يفرع إلى أعوانه من الحفر  
 والحراس، فلم يجد أحداً فارغاً له، كل منهم بنصيبه في المشاجرة  
 مشغول. وضائق به وجوه الخيلة، فراجع نجا بنفسه بما لا تحمد  
 عقباه، فإذا به عن كذب من فئة تضارب بالهراوات في عنف  
 وهوج... وماهى إلا أن اندمج في هذه الفئة، وقد تعاورت الضربات  
 فخر مشخنا بالجرار...!

وفي مرتفع النهار، شمل الضيعة خمود وتخاذل وانهار. ثمة  
 أناس داخل الأكوخ وخارجها، طحنهم المركة وأدمت أوصالهم،  
 فهم يلبون شعثهم، ويعالجون جراحاتهم... وثمة أمتعة مبعثرة

أمام الدور ، وأنقاض ما تهدم من جدران تجوس خلالها الكلاب ،  
متشمة في خوف وحذر . . .

وفي صبيحة غد شوهد شيخ الجامع يحوب الضيعة ، مستعيذا  
بالله ، ملتسما منه اللطف في قضائه . . . وكان يميز بالدور للماء، يعود  
طريحا أو يؤاسى جريحا ، ويهدى نائرا أو يشاور ذا رأى من  
الاشياخ . . .

وأدى به المطاف إلى إدارة الضيعة ، فما إن رآه الشيخ الذي يتولى  
كتابة الحساب ، حتى ألقى إليه مفاتيح المخازن ، فإذا هي تلك الحرمه  
الضخمة من المفاتيح الخشبية ، وقال وهو يسلمها له :  
أبقها معك يا مولانا الشيخ ، ريثما يتم تعيين الناظر الجديد . .



## المستعين بالله... (الكاتب هاردي).

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبان الحرب .  
وأحسنا سحاب الهم والفرع تتعقد في سماء حياتنا ، وتوترت  
الأعصاب أيماتور ، فكر فريق منا أن يهجر القاهرة ، إلى بعض  
الاماكن النائية يطلب فيها الطمأنينة والامن ، فكنت أحد السباقيين  
إلى الهجرة .

وقضيت في الضيعة بضعة أشهر ، أتبع أخبار الغارات في  
الصحف ، وأتلقط أحاديثها من الأفواه . وكلما علمت أن غارة  
ووتت سكان القاهرة أو الإسكندرية ، وكان لها آثار وخيمة ؛ —  
حمدت الله الذي وفقني إلى المبادرة بسكنى الضيعة ، لأبعد بيني وبين  
منطقة الخطر ، فأكون منه بمنجاة ! ...

ولكنني على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجدت في قلبي  
ديب السأم يزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحدة القاسية ،  
وبما يحيط بي من بيئة جديدة عليّ ، فقدت فيها كثيرا من ألوان  
الرفاهية ، ونأيت فيها عن كثير من مظاهر حياتي الاجتماعية  
التي ألفتها .

وبينما كنت في روتق الضحى أجلس في شرفة الدار الريفية  
التي نزلت بها ، أغالب الوحدة وأنق عن نفسى الملل بتصفح مجموعة  
من الأقاصيص ، إذ أقبل على الخادم برزمة البريد ، فتلققتها منه في  
شغف ، وانكبت على الصحف ألهم أنباء الغارات ، فإذا الحالة  
تزداد سوءاً على سوء ، فانتقبضت نفسى ، ونحيت الصحف عنى ،  
رائصرت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدى ، فاسترعى انتباهى منها  
اسالة راعتنى بغرابة خطها ، كأن كاتبها تلبذ مجتهد ، يحاول أن يظهر  
براعته فى حسن الخط . ولبثت أتأمل العنوان هنيهة ، ثم التمت  
عنه ، وهممت : أيمكن هذا ؟ ...

وفضضت الغلاف متعجلاً ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع  
بصرى على الإمضاء حتى ابتسمت ، ويان لى أن ظنى لم يخب ،  
ورحت أقرأ :

أيهذا الصديق العزيز :

سلامى إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله - جلت قدرته -  
وأنى إليك أنى نزيل مصر منذ أشهر ، وقد شهقت إلى رؤيتك  
نفسى ، فطلبتك فى الهاتف مرات : وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب  
المتكرر : أنت فى معزلك ، وأبالخرى فى مهربك . وإذ طال تنظرى  
لك - على غير طائل - استخرت الله فى أن يطالعك منى كتاب .

وإني مخبرك بمقامي في «الحسين» وامتداد إقامتي فترة . فإذا فككت  
عن نفسك إسارها ، ورأيت عودا إلى «قاهرة المعز» ، فزرني  
بداري «مغنى الرشيد» ، تناول أقداحا من الشاي الذكي ، وتذاكر  
أحاديث الماضي الحبيب ... ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام  
طمأنينة وأمان ، فلا تهولك الأخطار ، وأقبل شجاعا غير هائب ،  
والله راعيك ...

( أخوك : «المستعين بالله هاردي»

كاتبين بالجيش )

وطافت برأسي شتى الذكريات ... «المستعين بالله» ...  
«المستر هاردي» ، بل «الكاتبين هاردي» ، ... صديق المستشرق  
المسلم ، الذي عرفته متحمساً للشرق والإسلام ، وأكثر منا نحن  
الشرقيين المسلمين ...

وتوضحت لي ، على الفور ، صورة ذلك الصديق الكريم :  
قامة ، بسوطة ، ووجه مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ،  
وعينان زرقاوان ، ترعان بصفتهما الشفاف . وصوت هادي .  
خافت ياتي بكلماته في تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين الكلمة والكلمة  
كأنه يتخيرها من معجم في رأسه ، ولهجة عربية ، تبين فيها فصاحة  
اللفظ . ولكنها لا تخلو من عجمة محببه ...

وتواليات الذكريات والصور ... « حى الحسين » ... جولانا  
 فى أسواقه ، نبتاع الطرف والتحف ، وجلساتنا فى نواديه نحتسى  
 الشاى الأخضر ... وكان من عادة صديق أن يتسمع فى هذه  
 النوادى إلى الجلاس من مختلف الطوائف ، ويتصيد الألفاظ  
 الغريبة فيقيدھا فى دفتره ، الذى بليت أوراقه من طول الطي  
 والنشر ، وتشابكت سطورھ من تكرار الزيادة والتعليق ...  
 وداره ، ذلك المبنى الصغير ، الذى أطلق عليه اسم : « الرشيد » : —  
 تهرلك منه السذاجة والطابع الشرقى الجميل ... وكان الصديق يتخذ  
 هذه الدار مثابة ، كما أقدم مصر ، فى العام بعد الأعوام . وأقرب عهدي  
 به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عني أخباره ، حتى خلت أنه  
 ليس إلى عودته من سبيل ...

وقت أذرع الشرفة جيثة وذهوبا . والرسالة فى يميني ، قد  
 هاجت فى نفسى عاطفة الذكرى لأيام رفاق ، قضيتها ناعم  
 البال خلى الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عيني على قول  
 الصديق : « إننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان ، . وما كدت  
 أخطو خطوتين إلى مقعدي ، حتى أخذت عيني عنوانات على جبين  
 الصحف ، تلمت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة  
 فى الأموال والأرواح ، فقدقت بهذه الصحف مغیظا وهممت :

— ٤١ —

شد ما يغفلون في رواية الأخبار ...  
 وصحت مناديا الخادم ، فقلت له على الفور :  
 احزم حقائبى ... سنرحل مبكرين إلى « القاهرة » ...  
 فقال لى مأخوذا :  
 والغارات يا سيدي ؟ ...  
 — أنحسب أننا هنا ناجون من الأخطار ؟ ... الأعمال  
 بيد الله ! ...

وفي أصيل غدى كنت أغادر دارى في « القاهرة » آخذنا طريقى  
 إلى « حى الحسين » ، ووقفت عن كتب من دار الصديق أتطلع  
 إليها ، فألقيتها كما عهدت ، الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح  
 المكتوب عليه بالخط الكوفى : « معشنى الرشيد » : فأخذت  
 بالمطرقة أدق الباب ، كما يفعل الطارق فى العصور الوسطى ! ...  
 وانتفحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس « مسرور » خادم  
 « الكابتن » الخاص فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته  
 الأنيسة ، وحنانى متلطفا ، ثم شد حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ،  
 فدفعت بخطاى داخلا ، فإذا الفناء الصغير كما عهدته رطبا مظلمًا ،  
 يظله عربش كرم عتيق ، وجزت بتلك الفسقية الساذجة ، وماؤها  
 يقرقر ؛ كأنه يحيى القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق ، تتدلى منه بعض قناديل ملونة  
ترسل أضواء محتشمة هادئة . . . وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ،  
ظهر شبح صديقي المستشرق ، وقد بسط لي ذراعيه ، فتعانقنا عناق  
الود والمصافاة . وأخذ صديقي بيدي فسأرتة إلى البهو ، وهو  
يخب في عباته الحريرية المصفاهة ، وقبائه الزاهي ، وذلك الخف  
الأحمر ، يخفق به على الأرض خفقات هينة ؛ كأنها همس أطياف . . .  
واسترعى انتباهي في نظراتي إلى الصديق هزاله وامتناعه ، ومشيه  
متوكلنا على عصا ، يظلم بعض الظلم . . . ودخلنا البهو ، فجلسنا على  
الحشايا متقاربين . وصاح صديقي قائلاً ، وقد ضرب كتفي يده :  
ما قولك في أني عثرت في « مجريط ، على مخطوط ديوان « ابن  
زريق » ، وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهلية ؟ . . .  
فقلت دهشاً :

ما أندرها تحفة ! . . . ألا تمتعني بالنظر إليها ؟ . . .  
فزوى ما بين عيني ، وسرح بفكره ، ثم همهم :  
تركها في داري وراء البحار . . . ولا أدري ما حظها من  
كوارث الغارات هنا لك ؟ . . .  
فهرزت رأسي أسفاً ، ثم قلت له .  
أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية في « إسبانيا » .

— ٤٣ —

من عهود الحضارة الإسلامية في «الأندلس» ؟ ...  
 وكنت أعلم أن لصديقي باعا واسعا ، في الرسم والتصوير ...  
 فقال لي ، وهو على حاله منسرح الخاطر :  
 لدى طرائف ولطائف ، أستطعت أن أنقلها رسما وتصويرا ،  
 وهي الآن رهينة أقدار الغارات في خزانة كتي هنا لك ...

ثم صمت لحظة ، وقال :  
 حينما جندت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى القاهرة ، لم أستطع  
 أن أحمل معي شيئا من كتب أو مذكرات أو صور ... جئت  
 هذه المرة أحمل الحديد والنار ...  
 وسمعتة يصبح بخادمه «مسرور» :  
 علينا الشاى ...

فقلت له :  
 إنى لأعجب لك ، كيف تتكلم عن الحرب والضرب ، وما  
 أراك إلا كسابق عهدك في «مغى الرشيد» ، تتقلب في أحلام  
 الشرق الهائنة ، وها هو ذا «مسرور» مازال قائما بخدمتك ...  
 فابتسم ابتسامة سائحة ، وقال :  
 أنا في إجازة مرضية ، أقضى فترة النقه ، بعد علاجى من  
 جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع في ساقه ، وواصل حديثه يقول :  
لقد أرادوني على أن أنزل الجيزة ، أو حلوان ، فقلت  
دلم عوني أستجم في حى الحسين ، أنشق عير الراحة في معنى  
الرشيد ، وأملا سمعى كل انبلاج فجر بسماع الأذان ، يهز نفسى  
هزا ، ويرنح أعطافى طربا ...

ثم ابتسم ابتسامة وضيئه رحبية وقال :  
ما أجل أن يقضى الإنسان عمره في ذلك الجو الساحر ،  
جود ألف ليلة ، ... إلى لا شعر بأنى أعيش حقا !  
وعلا بصدرة يملأ رثيقه بالهواء ، فتناولت سبعة ، كانت مناعن  
كثب ، وطفقت أعبئ بحياتها ، وأنا أصدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات :  
ولكنى أرى أن شيئا ينقصك ...

— أى شيء ؟ ...

فتباطأت هنيئة ، ثم قلت وأنا بالسبعة أعبئ :  
ينقصك شهر زاد ، ...  
ورفعت عيني إليه ، فألفيته يصعد نظره في عرض الحجر  
صامتا ، وهو يتكلم ابتسامة شاحبة ، ثم ججم :  
« شهر زاد ، ؟ ... ويحك من مذارا ... أنى لي بـ « شهر زاد »  
هذه ؟ ... »

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول ، وقد تزايدت  
 ابتسامته ، في صوت متخافت ، كأنه أت من مكان بعيد :  
 شهر زاد ؟ ... إنها بعيدة .. بعيد كل البعد ...  
 وأردت أن أتبين ما يعنيه ، وما يحاول أن يخفيه ، فابتدنا  
 « مسرور ، قادم بصيف الشاي ، يتخطر بحجمه المتكامل الضخم ،  
 وعمامة الطويلة ، التي تكاد تلامس السقف . فوضع الشاي بين  
 أيدينا ، وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته الثقيلة ... :  
 وصب صديقي « المستشرق ، الشاي في الأقداح ، وأخذنا نتحسى  
 على مهل ، ونحن في صمت كأننا في شغل بال شراب ... :  
 وجعلت أنقل بصرى في الحجرة أتفحص ماحوت ، فوفقت  
 عيني على صورة ، لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه  
 نسوى ... ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عيناه دججوان ،  
 يفتبط تحتها خمار أسود ، رقيق السيج يكاد يشف عن ملامح  
 وسمات قمهضت إلى الرسم أنوسمه مليا ، وقد خلبنى هاتان العينان  
 بجورهما الساحر ، وأهداهما الوطاف ... ورجعت الى مجلسي  
 فاحتسيت جرعة من قح الشاي ، وأما أقول :  
 صورة رائعة ... لقد تجملت براعتك في التصوير يا صديقي ... !  
 — أنرى ذلك ؟ ...

— ٤٦ —

— أمن وحي الخيال هي ، أم من عالم الواقع ؟ ...  
فصمت متشاغلا يصب الشاي ، ثم قال مهمها :  
من وحي الخيال ...

— ألم تستلهم السمات من نموذج حي ؟ ...  
— قلت لك : من وحي الخيال ...

وشرد بذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث ، فأقبلت على  
قدحى أشرب منه ، وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت ، فقلت  
أصل ما انقطع من الكلام :  
ظننت أن « شرزاد » تعوزك في « مغنى الرشيد » ، فإذا هي  
تحتل منه أعز مكان ...

فأطلق ضحكة غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملعقة في يده :  
لا وقت عندي لشهر زادك يا صديق المهدار ...  
كيف تنفق يومك ؟ ...

فجمع إليه ما انتشر من قبائه ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوى  
شعره الأملس ، ويقول :

إني أستجم ، لا أبرح الدار الا النذرة .  
— ألا تمل هذا النمط من الحياة ؟ ...

— اذا شعرت بحاجة الى التسلية ، فعندى « مسرور » يفكهنى

— ٤٧ —

بنوادره اللطاف ... وقد أخرج لبلا في ضوء القمر ، أطوف  
بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار ، مقبلا على المطالمة ..  
— وماذا تقرأ ؟

— أراجع نصوص شعر « العباس بن الأحف » ... إنه زادي  
كله في هذه الأيام ...

— ما لك ولهذا الشاعر ؟ إنه ينفج وجدا وصباة ...  
فسرّح صديقي بصره لحظه أمامه ، وقال :  
إني لأقرؤه لسهولته وعدونه شاعريته ، لا لوجده وصبايته ...  
خمالى بالحب شأن ...

— ومعجمك الأحمر ، كيف حاله ؟ ...  
فسنحت على ثغره ابتسامة . وهمهم :

تقصّد الشيخ « جاد الرب » ، أستاذي ... إنه بخير ...  
— عجيبٌ أن أسألك - أنت ضيف مصر عن رجل ، تجمع  
بينى وبينه مدينة واحدة ... أنصدق أنى لم أره منذ زرته معك  
آخر مرة ، كنت أنت فيها بمصر ؟ ... أعلى حاله هو لم يجد في شأنه  
جديد ؟ ...

فأخذ صديقى يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على  
فوديه ، متمهلا في عمله ، مطيلا لوقته ، ثم قال ، منحرف البصر عني :

— ٤٨ —

إنه كما تعهد ، لم يحدث له شيء ذوبال ، إلا ما كان من أمر تافه .  
- ماذا ؟ ...

- زواجه ...

- عجباً . أيتزوج وهو شيخ فان ، نصف بصير ، نصف سميع ،  
نصف حي ؟ ...

- هذا ما وقع ...

- من تكون تلك التي رماها به القدر ؟ ...

- « نور العين » ... ربيته ...

- الطمعة الخريرة ، إلى كما تضيق ذرعاً بمعابقتها ؟ ...

- أحسبها تظل طفلة أمد الدهر ؟ ... لقد غدت فتاة يافعة ..

لأنها تستقبل عامها السابع عشر ! ...

- ألم يذرف الشيخ على السبعين ؟ ...

- لا بأس ... لقد كملها طفلة ، وألف أن تتعده بالخدمة ،

ولم يكن يقيم في البيت سواهما ؛ فلما قاربت طور الشباب لم يجد  
الشيخ بدا من أن يبنى بها ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح  
دينه ، ويرى عرضه ...

واسترخى صديقي في مجلسه ، وأشعل غليونيه ، وراح ينفث  
الدخان ويمدأ مسبل الجفنين ...

وعادت الذكريات تطوف برأسي ، ولاحت لي مشاهد من  
 زيارتي قديماً لبیت الشيخ ، في صحبة الصديق المستشرق ؛ إذ كان  
 يقرأ عليه بعض الكتب ، ويدرس معه بعض النصوص ...  
 كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمة ، فنجد غريقاً  
 بين كتبه ، تشرف عليها عمامته الحمراء الضخمة ، رمزه العتيق ،  
 الذي لا يتزائل عنه ، مهما جد من أحداث ، ومهما تعاقب من  
 أجواء ... ولا نكاد نطمئن في مجلسنا إليه ، حتى يصفق يسيدين  
 هن يلتين ، صائحاً بصوته المختنق :

القهوة يا نور ، ... !

وما هي إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية ، عليها إبريق  
 تحف به أقداح بلدية ، وموقد يتوهج فيه الجمر ، وتتعلى منه سحب  
 البخور ، ثم تبرج عن كنب من الشيخ ، وتبدأ في صب القهوة ،  
 وتقديم الأقداح مرة بعد مرة ... وهي صبية سمراء ، فوارة العيتين  
 مراحا وحبوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون  
 على الدرس ، بين قارئ ومستمع ، فإذا آنست من أحدنا غرة  
 رمته بحبات اللب أو الفول ، وهي تخفي بين طيات خمارها الأسود  
 ما يغلبها من الضحك ، وتتشاغل بإذكاء الجمر أو ملء الأقداح ...  
 وبيننا أنا في فيض من هذه الذكريات ، إذ تقابلت نظراتي

ونظرات صديقي المستشرق ، وهو يتابع تدخينه ، فسمعتة يقول  
همساً كمن يحلم :

ما كان أكثر معاكستها لنا ! ...

وأمسكت عن الكلام فترة أحرق فيه ، وقد راعني أننا كنا أثناء  
صمتنا في رحلة على جناح الذكريات نسبح في آفاق ماض حبيب .  
ثم قلت :

والآن كيف هي ؟ ...

— تكاد تكون فتاة أخرى غير التي نعرف ؟

وشغل صديقي بوضع الطباقي في غليونته وإشعاله . وفي هذه  
اللحظة قدم « مسرور » يرفع من بين أيدينا صينية شاي ، وهو  
يقول لسيدة :

أذكرُك بالموعد ... لقد أذف ! ...

فقلت لصديقي على الفور :

أعلى موعد أنت ؟ ...

— لا عليك ... إن هي إلا زيارة غير محتومة لصديقنا والمعجم

الأحر ، لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها ...

قمضت قائلته :

بل تذهب لطبنتك ، فإذا أذنت رافقتك على مأوف

العادة ... إنها فرصة أغتتمها لتحية الشيخ ، فإنى لم ألقه منذ زمن  
هديد ...

فقال وقد لم شعته ناهضاً :

يسعدنى أن تكون معى ...

وتهمأنا لمبارحة القاعة ، وفيما نحن منصرفان لا حظت أن  
صديقى يسترق النظر إلى الصورة المعلقة ... ومضينا إلى الباب  
يخبّ صديقى فى قبائه ، ويكوّر على قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة ...  
وخرجنا نجتاز الدروب المتلوية نخوض فيها الظلام الذى كان طابع  
الحياة الليلية فى ذلك العهد — ونحن صامتان نستبين الطريق فى  
محاذرة واحتراس ... وبعد لآى بلغنا مأوى الشيخ ، فأخذ  
صديقى يقرع الباب هنيئة ، فانفرج مصراعه ، كأنما تحركه  
يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز ، تطارد ظلامه فلول من الضوء ،  
يبعثها قنديل منكمش خزيان . وفيما نحن نعانى وحشة المكان ، إذ  
فاجأنا سحلة هزيلة متصلة الحلقات ، صاحبت خطانا تؤنسنا حتى  
باب الحجرة ، وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شحيح ،  
ونهب منه رائحة التبغ ... وصفق صديقى المستشرق تصفيقة  
خاصة ، فسمعنا صوتاً متداعى النبرات يقول :

أهلاً وسهلاً ...

فدخلنا القاعة ، فإذا هي هـى ، فى غربتها ، وضيقها ، وحلوكتها...  
كومات من الكتب، تترأى وسطها عمامة ضخمة سمراء تبتلع وجها  
معروقا ضيلا ، أكثره لحية شعناء... ودنوت من الشيخ أذكره  
بنفسى ، فتناول يدى ، وأبقاها بين يديه ، وهو يحملق فى بعين  
كلبة محمرة تجردت من الأهداب ؛ وقال فى صوت لم يصف بعد  
من بقايا تلك السعلة الكريهة :

أهلا بصديقنا الهارب... أكذاك تنسانا دهرًا ؟  
فقلت وأنا أشد على يده :

حقا غبت عنك طويلا ، ولكن عذرى فى ذلك ما أحاط بى  
من مشاغل ومهام ...

— ألم تستكمل بعد دراستك لشاعر المعرة « أبى العلاء » ؟ ...

— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم ، فى وقته  
روعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟ ...

فهمهم صديقى المستشرق ، وقد اقتعد حشيته القديمة فى  
مكانه المؤلف :

إن « أبى العلاء » ينتظر زوال الحرب ، ليخرج من مخبئه وينفض  
التراب عن لحيته ...

فقال الشيخ متضحكا :

وجذب من جانب حشيته كتابا أبلأه «الطى والشر» ، ثم قال  
لصديق المستشرق :

وانطلق يتحدث عن شاعرية «العباس بن الاخنف»، وغرله،  
مستشهدا بمقطعات رفاق يحفظها له . فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة  
حديثه ودقة بحثه . وبينما نحن في نشوة السماع ، إذ أحسست حفيف  
ثوب ، فأرسلت نظرة خفية نحو مصدر الحفيف ، فطالعتني على  
الفور عينان عجائوان ، تحتهما لثام أسود هههاف ، فشعرت بهزة  
تنظمنى ، وألقيتى أختلس النظر إلى المستشرق، فوجدته مطأطيء  
الرأس ، يبعث بأطراف عمامته ...

وقصدت "نور العين" مجلسها ؛ فن كسب من الشيخ ؛ كما كانت تفعل ، ووضعت الصبينة بإبريقها وأقداحها وبجمرتها بتطابير منها عبق البخور ، ثم شرعت تصب القهوة وتوزعها علينا ؛ قدحا بعد قدح ؛ والشيخ ماضٍ في حديث "العباس بن الاحنف" ، يشهد من رقائق غزلياته ، وهو يتابع أنفاسه في جهد ، يستدر الإشفاق . وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالى الإنصات له ؛ إذ كنت في الفينة بعد الفينة ، أرسل النظر إلى هاتين العينين الدجاجوين اللتين يخفق دونهما الخمار الهفواف ، فيخيل إلى أنهما عينان معلقتان في الفضاء ، لا يتصل بهما وجه ولا جسد ... نبعان عميقان يزخران بالأسرار الغامضة ، ويفيضان بالأحلام العذاب ... ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقي المستشرق ، فلما رأيته إلا متجمعا مسترخيا في جلسته ، يعتمد ذقنه بيده في إطراق ، وكأنه في غيبوبة روحية ، يهيم في آفاق مترامية ...

وترادفت اللحظات ، ونحن في هذه الدنيا الغريبة : صديقي مسترسل في حله السحري ، يكاد لا يفيق ، وأنا في جلستي أدير النظر حولي في هواة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان في الفضاء ، كأنهما نجمان يحاولان بلألائهما أن يفضيا إلينا في جنح الليل بسكته الحياة ، وهذا الصوت الذي يردده الشيخ يبدو كأنه

مهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان سحيق .  
وبغته أفقت من غفوتي على ضربة ، أوقعها الشيخ على كتاب أمامه  
وهو يقول :

أليس بما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر الفذ ، أنه عاش حياته  
للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفيها صفيًا للحب ؟  
ما أروع قوله :

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الهموم ثيابا  
كلما أغلقت من الوصل بابا فتحت لي إلى المنية بابا  
عذيتني بشيء سوى الصد فما ذقت كالصدود عذابا  
فقلت :

لم يكن « العباس » إلا قلبا يخفق صباة ، وروحا تشف نقاء .  
فسمعت صديقي المستشرق يههم ، وهو على حاله مطرق :  
ما أعظم فداء هذا الشاعر الفذ في سبيل حبه وقلبه ...  
واستأنف الشيخ بروي من شعر « العباس » في نغمة متساوقة ،  
وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقين في الفضاء  
تأخذان طريقيهما إلى الباب : وإذا المستشرق يعلو بهامته يشيع  
الشيخ الغارب بنظرات خاطفة ...  
وغابت « نور العين » عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ،

ولم نسمع من صوت ؛ كأنما هي طيف هبط علينا حيناً ثم تزايد  
عائداً إلى عالمه المستور . . . .

ولم يطل مكوثنا بعد ، فنهض صديقي يستأذن شيخه ،  
ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ؛ وتركنا الدار لندخل تلك  
المتاهة ، من الدروب المتلوية ، والحرارات المستغلقة السابحة في عباب  
الظلمات . وكنا نلتمس الطريق ، كأننا نسير مدفوعين بهدى  
القطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق في أخيلته ، مشغول بعالمه . . .  
وتمادي بنا في الصمت ، وكان الهواء جديسا كثيفا ، زاد من وطأة  
الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق في  
الطريق ، وكأنه شعر بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدي  
ويلاطفها ؛ كأنه يستعقب بذلك عن الكلام . . . . وتبين لنا أننا  
خرجنا من المتاهة إلى شبه ساحة ، لم يتوضح من معالمها إلا مآذن  
تشرئب بقاماتها المشوقة إلى العلاء ؛ كأنها تحاول أن تتخلص  
من عالم الظلام والصمت واحتباس الهواء . . . . ووقف صديقي  
يحقق في تلك المآذن السامقة ، وقد شغفت قلبه ، وإذا صوت حلو  
النغم يشق ذلك السكون منشدا :

كيف أسلو ، وعلقتي كلما لا      ح بريق تلفنت للقساكا  
كل من في حماك يهواك لكن      أنا وحدي بكل من في حماكا

وجعل الصوت يرجع في نشيده ، ونحن إليه بقلبينانفو ، مستمعين  
بعذوبة الإنشاد ، ثم تزايل الصوت وئيدا يطويه السكون  
والظلام ...

وخيل إلى أن المآذن كأن هاماتها تتضام وتقصر ،  
وألفت نفسي وصديقي نتحرك عائدين إلى المتاهة ، نضرب في  
الحارات والدروب ... وعاد الصمت يلقي علينا أنقاله ، وأنفاس  
الهواء تزداد احتباسا وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض  
طبقات ، ويد صديقي تلمس يدي وتضغطها بين حين وحين .  
ووصلنا إلى « مغنى الرشيد » فاجتزنا الباب ، ودخلنا الهو  
المعهود ، وجلس كل منا إلى حشيشة نواجه معصورة العينين ،  
ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفواف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا  
بهاتين العينين ، وهمست قائلا :

في هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة  
والفتور ...

فقال لي صديقي المستشرق ، في صوت هادىء النبرات :  
إنهما عيتان لطيف بعيد ... طيف بعيد غاية البعد ... ليس  
إلى الوصول إليه من سبيل ...  
وهنا أسبل جفنيه ، وكأنى به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى ...

وكنت أزور الصديق المستشرق ، فى الفينة بعد الفينة ،  
 ماواتنى الفرص ، وكان يؤسفنى أنى لست بمستطيع أن أجيبه إلى  
 ما يطلب من تواصل الزيارات ؛ إذ كان يحس أنه فى حاجة  
 إلى من يأتس بوجوده فى دنياه التى اختارها لنفسه ،  
 دنيا الحيرة والوحدة ، وإلى من يفضى إليه بما يضيق به صدره من  
 سردين ... ولكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفس عن  
 نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران فى  
 صمته المضطرب ، لا يزيد إذا اشتدت به الحال ، على أن يضغط يدي  
 ويلاطفها فى حنو ورفق ...

لم يجد فى برنامج حياتنا جديد . جلساتنا الهادئة فى « مغنى  
 الرشيد » ترعانا هاتان العينان ينبسط تحتها الخمار الأسود الهفاهف ،  
 وزوراتنا لذلك « المعجم الأحمر » نستمع إلى ثرثرته الفيضة فى  
 شعر « العباس بن الأحنف » حيث تقبل علينا « نور العين »  
 بحفيف ثوبها ، حاملة صينية القهوة عليها الإبريق والأقداح  
 والمجمرة الطيبة الشذا ...

ومرة خرجت وصديق فى نزهتنا الليلية ، فقصدنا الساحة  
 ذات المآذن السامقة ، نرعى السماء وقد تناثرت فيها النجوم  
 المتألقة . وبها نحن واقفان فى صمتنا وعيوننا موصولة بالآفاق

البعيد ، إذا نجم يهوى محترقا ، وقد سطع بريقه سطوعا يخطف  
البصر ، ثم ما لبث أن ابتلعت غياهب الظلمات ... فقال صديقي  
وهو في وقفته متطلع النظرات :

ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقي بنفسه في أحضان  
الليل البهيم ... إني لأحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه  
ليضمه إلى صدره ضمة الأم الروم ... إن علماء الفلك ومن إليهم  
سيقولون في مثل هذا النجم إن انفجارا حدث فيه ، أو أن  
اختلالا وقع في نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقا  
وأدركه الغناء ... ولكن لم حدث الانفجار ؟ ... لم وقع  
الاختلال ؟ ... لا يدري أحد ... وما كان النجم ليدري ذلك  
المصير ... إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل في كيانه ، أعقبه اشتعال  
فقناء ... ليس في الوجود شيء بقادر على أن يحمي ذلك النجم  
بما أصابه ... ثمّة يد خفية تدبر الكائنات ، لا تسمو إلى إدراكها  
العقول والأفهام ... ألسنا مسيرين في هذا الكون لاخيرين ؟ ...  
علينا أن نذعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد ...

ثم أخذ يدي ، فسرنا الموبنى وتابع صديقي قوله :  
أليست أعمر مرحلة في حياة هذا النجم وأعظمها هي تلك  
اللحظات التي احترق فيها ، فوهب كل ما اختزن في قلبه من

حرارة وضياء... إن ملايين السنين التي قضاه من حياته في مسبح الفلك لتعد نافذة زرية إذا قيست بهذه اللحظات التي عاشها، وهو يهوى محترقا في الفضاء... ما أجلها متعة وما أروعها حياة... شبيه بهذا النجم إنسان يظل عمره جامد الحس بارده خابي الوجدان راكده، وما هو إلا أن تنبثق في أعماقه شرارة الانفجار، فيلتهب باهر الضوء، خاطف البريق... لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة، ويكمن فيها سر الحياة الحقة، لا يعدلها شيء في الوجود...

ثم غشيه الصمت، فلم تنفرج شفته عن حرف؛ كأنه يخشى أن يتسلل من بينهما سر كين.

وتعاقبت الأيام... ولاحظت على صديقي أنه لا يزور الشيخ إلا لماما، وأن شحوبه يتزايد، وأنطواءه على نفسه يتواصل، وأن ذلك البركان الذي يحنى عليه ضلوعه يستخدم مضطرا ما فلا يجد له من متففس... وكان صديقي إذا اشتدت به كربته، خرج إلى تطواف بعيد الشقة، تكل منه الأقدام، حتى لقد نتغلغل في رحاب الصحراء، ونكاد نقيه في شعابها الموحشة. وقد يتفق لنا أن نجوز بدار المعجم الأحمر، فأرى الصديق يخفف من خطاه، ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار. وقد رفع عينه قليلا

— ٦١ —

إلى حيث نوافذ المنزل ينضح منها ضوء هزيل . ثم يحث خطاه إلى  
مغناه ، وقد بلغ به الجهد كل مبلغ ، فيلقى بجسده المتخاذل على  
الفراش ...

ولما هالني اشتداد الأمر به اقترحت عليه أن يستبدل بداره مسكنا  
في حي آخر ، ينقله إلى بيئة جديدة ؛ وأسلوب من العيش جديد .  
فقال لي :

أريد أن تسبني ما أنعم به عما بقى لي من أيام إجازتي في  
هذا الفردوس ؟

فصحت به :

أهذا تسميه فردوسا ؟ ... إنه الجحيم المستعرة ... إنك  
تذوب وتحترق على عجل ...

فابتسم لي ، وهو يشد على يدي ، ثم قال :

لكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار ...

وأطرق برأسه وقتنا ؛ ثم قال :

إنى أذوب حقا وأحترق ... ولكن الإنسان في بوتقة  
الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر  
الخالص ...

وقصدت دار صديقي يوما ؛ إذ كنت معه على موعد لقاء

— ٦٢ —

لزيارة شيخه « المعجم الأحمر » ، فقال لي :  
أنا اليوم مجرود ، فلتبق معي في الدار لانبرحها ...  
واتخذ كلانا مقعده على الحشايا . ونحن تناول الشاي وندخن ،  
وكان أول ما استرعى نظري أنى وجدت مكان الصورة خالياتها ،  
فالتفت إلى الصديق على الفور أقول :  
أين « شهر زادك » ؟  
فابتسم ابتسامة أمي كظيم وغمغم :  
لقد توارت ! .. استردها عالم الأرواح ... ألم أقل لك من  
قبل : إنها طيف من الأطياف ؟ ...  
فلت عليه قائلاً :  
زدني إيضاحاً ... ما هذه الأحاجي ؟ ...  
فرنا إلى بعينه الصافية الزرقة ، وظل وقتنا لا يتكلم ، ثم قال  
وقد اذور يبصره عني :  
هل لك في أن تقرأ فصلاً من « رسائل إخوان الصفا » ؟ ...  
لقد انتهت إلى مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل ...  
فصعدت فيه بصرى فترة ، وقلت :  
وأين « ابن الأحنف » ؟ ...  
فرمى بنظره في عرض الحجرة ، وقال :

- ٦٣ -

طويته ... فرغت منه ...

— وهل يُطوى حديث الحب والغزل ؟ ...

فأجابني وهو على حاله مشرد النظرات :

متى كان في مقدورك أن تطوى حديث الحب والغزل فافعل .

تحسن صنعا . . . .

والفئته يستخرج مخطوطة الرسائل، وأقبل يقرأ جهوَرِيّ الصوت ، بأدلا أكبر الجهد في التفهم والتمعن والاستخلاص ، والفئتي أشاركة الدرس وأساجله الرأي . ومكثنا فيما نحن فيه كبير وقت ، وكان وجه صديقي يزداد احتقاناً وعيناه يتوضع فيها الجهد والكلال . وإذا رأسه يترنح رويدا ، ثم يسترخى على الخائط خلفه .  
مطبق الجفنين . . . .

وتوالت أيام ، وأنا أجد صديقي تنتقل به الحال من سيء إلى أسوأ ، فقد لبث رهين الدار لا يبارحها في عشية أو غداة ، وعكف على «رسائل إخوان الصفاء» يتعمق فيها أدق تعمق ، ويعنت نفسه فيها أبلغ إعنتات ، وكأنه يريد ذلك لنفسه عن قصد . . . .

ولا حظت أنه كلما طاف بذهني شأن الصورة ذات العينين الدعجاوين ، والخمار المصفاف ، وحاولت أن أطارح صديقي الحديث فيها : أراه — وكأنه فطن إلى ما يدور بخلدِي — يأخذ على السيل

ويشغلني بأحاديث مختلفات تطوح بنا بعيدا عن ذلك الحديث .  
وطالت فترات صمته وإطرافه ، وتبين في جسمه الضنى والنحول ،  
حتى لقد رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو  
تناول قدح . فأدركني رحمة لصديقي ؛ وإشفاق عليه ، بما حل به ،  
فأمسكت يديه ، وقلت له في عزم وتأكيد :

لا أرضى لك هذه الحياة .. لقد صبح عزمي على خطوة  
في شأنك ... سأحضر بعد غد لأنقلك إلى مسكن آخر ، رضيت أم  
أبيت ... نستطيع أن نساfer إلى الضيعة ، أو نقيم أيا ما في إحدى  
الضواحي الطيبة الهواة ...

فلم يعقب على كلامي بشيء ، ولم يزد على أن ربت يدي ملاطفا  
وهو يبعث إلى بابتسامة مستخلقة زادتني حيرة إلى حيرة ...

وفي اليوم الموعد وفدت على « مَخْنَى الرشيد » وقد انتويت  
أن أفض عزمي على نقل الصديق إلى مسكن آخر . وما كدت أقارب  
الداهليز حتى أقبل على « مسرور » يزحم المعمر بجسمه المتكتل وعمامته  
الطويلة التي تناطح السقف ، وقال لي مبادرا :

لك عندي رسالة من سيدى ...

وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إلى ، ففضضتها على الأثر ،  
وقرأت :

و صديق الكريم :

كان من مقترحك علي أن أستبدك بمثابتي مثابة أخرى ، فلم  
ينفتح لي من الرأي إلا أن أختار حومة القتال ، فر بما أقدرني الله  
علي أن أقوم هنا لك بعمل ذي جدوى . سأذكر لك كرم صحبتك ،  
وأشكر لك صفو مودتك . هل يسمح الدهر بأن نلتقي يوما ؟

حبك المخلص : المستعين بالله ،

وبارحت الدار ، والرسالة في يدي ، وأنا في مواجهة من الزهول  
والآسى ، دون أن أبادل ، مسرورا ، أى لفظ ...

ومضى شهر لم أعلم فيه من نيا صديقي شيئا ، كثر أو قل ...  
وبينا أنا في مكنتي ، منصرف إلى بعض عملي ، إذ دق  
« التليفون » ، فإذا المتكلم علي ما بدا لي جندي أجني ، يلغى رسالة  
مقتضبة ، يدعوني فيها إلى زيارة مستشفى عسكري بالجيزة ...  
وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبي خفقة وله وجزع . ونهضت  
من فوري عجلا إلى ذلك المستشفى . فلما بلغته ، واتخذت إجراءات  
الإذن بالدخول ، ذهب بي الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت  
صغيرة بيضاء الأثاث ، بيضاء الطلاء ، تطل نوافدها علي مروج  
وحقوق . وكنت قلقا لا يستقر بي المقام ، أذرع الحجرة تارة ،  
وأقف أمام النافذة تارة أخرى ... وبعد وقت دخل علي ممرض طلق

الحيا ، أبيض الحلة ، يلتمع نظافة وأناقة ، وقال :  
صديقك ينتظرك ... أرجو ألا تطيل زيارتك ... لقد  
أجريت له حديثاً عملية جراحية ذات خطر ...  
وخطونا إلى حجرة المريض فإذا هي حجرة مسدلة الأستار ،  
يشع فيها الدفء ، وفي ركن منها سرير ، تبينت بين أغطيته  
ومفارشه وجها بالغ الشحوب ، شديد الامتقاع ، وجها لم يكن  
بالغريب على ... وتقدمت مضطرب الخطو ، فقابلتني العينان  
الزرقاوان ، وقد بدا صفاً ، حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما  
طيف تلك الروح الوادعة الحنون ... وتخيلت على ثغر الصديق  
ابتسامة رقيقة ، واضطربت شفاته بصوت مهزول راعش :

لقد سمح الدهر بأن نلتقي ...  
ولا أدري على وجه التحقيق بأى كلام أجبت ، ولكنى أذكر  
أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ يدي يشد عليها ، فشعرت  
بكفه مقرورة غير متماسكة .

ووقفت صامتة أحاول أن أكسب وجهي مظاهر الرضا  
والاطمئنان ، حتى أخفى عن صديقي مارا عني من حاله ...  
وبعد قليل ترك يدي ، وراح يتحسس بأنامله طيات وسادته ،  
فإذا به قد أخرج صورة صغيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها

— ٦٧ —

لحظات ... ورأيتَه يسبل جفنيه ، وتراخى يده ، فامتدرت  
الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه ... فاختلست النظر  
إليها ، فإذا هي عيان دججوان ، ينسبط تحتها خمار أسود هفهاف ...  
وخيل إلى أن هاتين العينين الحالمتين ، وهما ترنوان إلى ، كانتا  
نديتين ، تتحير فهما قطرات من دموع ...



## تأمين على الحياة

قهوة صغيرة ، أو قل حانة حقيرة ، ينحشر فيها جمع من الصعاليك والفارغين ، يقضون فيها الوقت ، أو بتعبير أليق بهذا المقام : يقتلون الوقت ، بثرثرتهم الحادة العنيفة ، ومجادلاتهم التي يسودها العناد والمكابرة مفضية بهم إلى المهاترة والمشاجرة والعراك ، على حين يتجرعون نقايات الخمر ...

من بين أوشاب هذه الحانة المدمنين ، شاب يدعى «شافعي» أو «الأستاذ شافعي» ، كما يصر هو نفسه على أن يدعو نفسه بهذا اللقب ...

ولم لا يكون أستاذا ، وهو الذي لم يكد ينحقق في حياته الدراسية ، وتلقظه معاهد التعليم ، حتى انزعج كاتبا ، أو شبه كاتب في بعض دور المحامين ، فشهد المرافعات الخطيرة تتجاوب أصدائها في جنبات المحاكم ... ومرت أمام عينيه أضياع القضايا ، فملقت بأنظارة أمهات الاصطلاحات القضائية ، وتناهت إلى سمعه أحاديث كتاب المحاماة ، تتناول إجراءات المحاكم وما إليها من أساليب الحجز والإبذار والكيّد للخصوم ...

وهو على بذادة هيئته يحاول أن يبدو أنيق المظهر ؛ فرباط رقبته الملهل الذى قرحته الأدران يعقده عقدة ضخمه كأنها سلحفاة آخذة بتلايينه ، وشعر رأسه العامر بالمقادير يرجله ويلطخه بالرخيص من الدهان ، وقد ظل من جيب سترته الأعلى قلم جبر ، أو بالأحرى أنقاض قاعة من قلم ثمين ، لو أو تبت معجزة النطق لصاحت : ارحموا عزيز قوم ذل ...

فإن هذا القلم أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع ... ما أعياه عن أن يخط حرفا بله كلمة ... ولم يكن الفتى ليريده على أن يجرى بشئ على القرطاس ، وإنما كان يتخذ شعاعا أو إشارة تعلن أنه من حلة الأقلام ...

كان الشاب يختلف إلى ذلك الحان ، داثبا لا يتخلف ، ويمضى أطراف النهار وآناء من الليل لا يبرحه إلا خطفا ... وكان صاحب الحان يلقاه بوجه عبوس ، ونظرة نكراء ، يتوضح فيها الإذراء ... أليس فى ذلك كله آية يشنه على ما يتمتع به الشاب من ملحوظ المسكاة فى دنيا التصمك والقراغ ؟ ...

وعلى الرغم من أن هؤلاء الرواد فى ذلك الحان قد ملتهم كراسيمهم ، وضجرت بنشبتهم تراهم لا يشعرون بطائف من الملالة والضجر ؛ إذ كانوا يأنسون بهذا الصخب الذى لا يفتر ، وتلك

المحاورات التي لا ينجبونها أوار ، ومتى كلت حناجرهم أشرعوا  
 أبصارهم إلى الطريق يجدون فيه مجالا للبتة والسلوى ، فقد كان  
 الحان قائما في ملتقى شارعين من أكثر شوارع القاهرة ، ازدحاما  
 وحركة ... المركبات على اختلاف أنواعها في جيئة وذهوب ؛  
 والسابلة على تباین طبقاتهم وأزيائهم ، لا يفتر تتابعهم من رجاله  
 ونساء ...

في أصيل يوم كان « الأستاذ شافعى » يتحدث إلى حشد من  
 الرفاق ؛ وهم متطلعون يستمعون إليه دون أن يفقهوا له قولا ،  
 وما جعلهم يصبرون على الاستماع إلا أن كلا منهم يريد أن يروم  
 غيره بأنه من أولئك النفر المسارين للتطور الاجتماعى  
 المشاركين في جديد أنظمتهم وأوضاعه ...

ومن حق « الأستاذ شافعى » أن تسجل له ما أوتى من بصر  
 نفاذ مؤثر ، يقلبه فيمن حوله ، ولسان ذلق تترادف عليه الجمل  
 طنانة رنانة ؛ والكلمات ضخمة ضخمة ، يلقيها مصطنعا لهجة المحامين ،  
 متخذًا طرائقهم فى الإشارة والتلويح ، فتسمع منه أمثال قوله :

الجهل بالقانون لا يعنى من المسئولية ...

المتهم برىء حتى تثبت إدانته ...

أياخذ العامل أجره بحسب إنتاجه ؟ أم بقدر حاجته ؟

وبينما كان « الأستاذ شافعى » متدفقا فى حديثه ، واجتمع حوله شاخص مشدوه ، إذا بضجة تنعالى فى ملتقى الشارعين ، فالتفت الأستاذ ناحية الضجيج ، فألقى الزحمة تزايد ، والطريق تنعطل حركته . وماهى إلا أن قفز من مقعده ، واقتحم الزحام ، وأرهف سمعه يتعرف الخطب ، فعلم أن صبي لبنان كان يسرع بدراجته الخربة ، عليها قوارير اللبن يوزعها على طلابها فى البيوت ، وفى ملتقى الشارعين صدمت إحدى سيارات الأجرة مؤخرة الدراجة ، فألحقت بها نوعا من العطب ، وكسرت إحدى قوارير اللبن ، فوقف الصبي يندب سوء حظّه ، ويتحسر على ما أصابه ، ويكرر على مسامع المتجمعين حواره خوفه مما ينتظره من حساب وعقاب ، على حين كان السائق يتصايح ، متها الصبي بجهله بنظام المرور ، وحداته عهده بسياسة الدراجات ...

وظل « الأستاذ شافعى » يدافع الناس بمنكيهه ، حتى بلغ مكان الخصمين ، فجعل ينقل بصره بينهما فاحصا ، وهو يرقب مجرى الجوار ...

وأوشك الجمع أن ينحازوا إلى جانب السائق فيما أدلى به من حجة تنفى تبعته ... وكيف لا يصدقون رجلا يتربع على مقعده العتيد فى سيارة ضخمة ، يصور موقفه تصوير خبرة وتدقيق ؟

وكيف لا يكذبون ذلك الصبي الغرير الفأفأ الذى لا يحسن إلا الشكوى  
والتحسر والانخزال ، معبرا بذلك الوجه الشائه الذى تتخالف  
أقسامه حتى لتأتى به عن طلعة الإنسان ، وتجعله أدنى إلى مرتبة  
العجائز ، فلا يثير بشكله وبحديثه إلا السخر والاستهزاء ؟  
وما هى إلا أن تقدم ، الأستاذ شافعى ، يجابه السائق بقوله :  
يجب أن نحدد المسئولية تحديدا واضحا يا حضرة ... أنت فى  
سيارة ، وهذا الصبي فى دراجة ، والفرق جلى بينهما ، من حيث  
القوة على الضبط والربط ، وإنه سائق لك ، وأنت من ورائه تراه  
ولا يراك ...

ومسح صبي اللبآن لعبه المتسائل على زوايا فمه ، ودعك أنه  
المتنفس ، وحلق فى ذلك الشاب مشدود النظرات ...  
وصمت الجمع إنصاتا إلى ذلك المدافع المنطيق ، بصوته الجهير ...  
ودبت الحماسة بين جنبي ، الأستاذ شافعى ، فعلا بصدوره  
وأصلح رباط رقبتة المنتفخ ، ثم أنزع قلبه العتيد من جيب سترته  
الاعلى ، واندفع يشهره فى وجه السائق ، وهو يقول :  
القانون صريح فى تحديد المسئوليات ... إن ...  
فقاطعه السائق متحديا يقول :  
لا تدخل فيما لا يعنيك يا أفندى ...

وأحس « الأستاذ شافعي » أن السائق يتحضر لشر ، فحشي  
 المغبة ، وألني قدميه أتراجعان ... ولكنه لمع شبح الشرطي يتخطر  
 في طريقه إلى الميدان ، فعاودته الحمية ، واستأنف قوله متصاحجا  
 متنفخ الاوداج :

كيف لا يعني ؟ ... أتعرف من أنا ؟ ...

فأجاب السائق ساخر اللهجة :

لم أتشرف بعد يا جناب « الحكمدار » ...

فعقب عليه « الأستاذ شافعي » وقد ملك أعصابه ، قائلا في  
 تؤدة ، وهو يحكم بخارج الحروف :

أنا السكرتير العام في نقابة المحامين ، وعضو مجلس الإدارة

المنتدب ...

وترأى شبح الشرطي ، وقد تصيدت أذنه ما بعض ما تفوه به الشاب  
 النائر ، فاستشعر له شيئا من التقدير ، وراه يتجه إليه ويسترسل أمامه  
 في نبرات خطائية يشرح قصة اعتداء السيارة على الدراجة ، غالبا  
 في التفصيلات ، متحذلقا في التعليل والتأويل ، واختتم خطبته بقوله :

القانون صريح ... من أضر بآخر لزمه التعويض ...

وكان صبي اللبان قد انبذ بدراجته مكانا غير بعيد ، وعينه

تنهب « الأستاذ شافعي » ، وفه ينفرج عن بسملة كريمة بلهاء ...

واتخذ الشرطى سبيله إلى مكان الدراجة ، وقد اكتسى وجهه صبغة من التزم والآنفة ، وراح يتفحص الدراجة كأنه خبير قى ، يستشف بنظره حقائق لا يعلمها إلا الأقلون ...

وما إن أتم بحثه وفحصه حتى انطلق إلى مكان القارورة يقلب النظر فى كُسارها ؛ كأنه يستجلى غوامض مصرعها ، ثم داعب حطامها بجذاته الثقيل ، ومالبث أن ركله ركلة ، ألقت به عند حافة الطوار مجزأ عليه ...

ورجع إن السائق يقول غائب القسيات :

خير لك أن تؤدى للصبي تعويضا ...

وسرعان ما سرت فى الجمع مهمة استحسان لهذا الرأى ، وانقلب الجمهور فى لحظة ظهير للصبي ، يأخذ السائق بأن يؤدى التعويض ... وألقى السائق نظرة على الشرطى ، فلمح شاربه يهتز انفعالا واسعة نجازا ... وألقى شرادم من غلمان الطريق قد تحلقت حوله ، وتألبت عليه ، وإذا بالاستاذ شافعى ، يتصايح ، معددا ما لحق الصبي من أضرار ، وما على السائق من تبعات ... فلم يجد السائق مفيضا من الاحتكام إلى الشرطى فى تقدير التعويض ، راضيا بما يكون من حكمه فى هذا الصدد ...

فأزاح الشرطى طربوشه إلى الوراء ، وقتل شاربه ثم انطلق بقوله :

— ٧٦ —

أعطه عشرين قرشا... لقد أصاب الدراجة تلف شديد...  
دفع السائق هذا المقدار صاغر، وتناول الصبي النقود فاغرافاه  
من دهشة واعتباط، وعماح الشرطى بالجمع أن تفرقوا.. وسرعان  
ما انقشع الزحام...!

انطلق صبي اللبان يجر دراجته في تسكع، وهو ينظر إلى  
يده مطبقة على النقود، فلم يكن لديه موضع آمن من هذه القبضة  
القوية... أيا آمن على النقود جيئه المتهتك، في ذلك الثوب البالي  
المهلل، الذي لا يؤمن على شيء...؟

سار وقتا لا يخطر بباله شيء، ولا يفكر إلا في مصرف هذا  
المبلغ الضخم... إنه أكبر مبلغ ملكه منذ عرف المال حتى هذه  
الساعة البيضاء...!

وفيا هو على حاله، يقدر ويدبر، أحس شخصا يتهاذى على  
قرب منه وإذا هو الأستاذ شافعي، ينظر إليه في تلف وهو يقول:  
مارأيك؟... أمسرور أنت؟...

فانبطت أسارير الصبي. وأطلق ضحكة شوها: وقال:  
طال عمرك. وبقي أولادك...!

— يبدو لي أنك ولد رقيق الحال... ما اسمك؟...  
... الفولى...!

— ماذا تعمل ؟  
— صبي لبان ...  
— عند من ؟ ...  
— عند « المعلم فتح الله » ... ألا تعرفه ؟ ... الرجل ذو  
الشارب الغليظ ، والكروش العظيمة ...  
وانطلق يوالى ضحكاته ، فأسكنه « الأستاذ شافعى » بإشارة  
منه ، وقال له فى جد :  
ماذا أنت صانع بالدراجة العاطبة ؟ ... وماذا أنت قائل للعلم ،  
فى شأن قارورة اللبن المفقودة ؟ ...  
فتنظر إليه « الفولى » ذاهلا يقول :  
لم أفكر فى هذا قط ...  
— إنه سيطلبك بالعشرين قرشا ؛ لأنها تعويض عن قارورة  
اللبن ، وعطب الدراجة ...  
فبدأ على وجه الصبي حيرة وتخوف ، وجعل يردد ، وكفه  
زداد انقباضا على ما فيها :  
كيف يأخذ النقود منى ؟ ...  
— هى من حقة ...  
وحنا « الفولى » رأسه فى قنوط واغتمام ؛ وأخذ يردد :

وماذا أصنع إذن ؟

— نبجث المسألة ؛ لعلنا نجد لك مخرجاً معقولاً . أنت بائس  
عجّاج ، وأنا مستعد أن أعينك على أمرك ...  
فقال الصبي وقد شرق بدمعه ، ونظر إلى الشاب نظرة توسل  
وركون :

طال عمرك وبقي أولادك .. أنا محتاج حقاً ... أنا يتيم ليس  
لى من أعول عليه ... وأنا أعمل عند المعلم بالقوت الضرورى ،  
وباليتة راض عني ، فلشدّ ما يضربني ويخزني ويهددني بالطرد ...  
واندفع يشكو ويتضرع ، راغباً في طريقة يحتفظ فيها لنفسه  
بالتقود ... وراح الأستاذ شافعي ، يدور حول الدراجة  
متفحصاً إياها بعين الخبرة ، أو بالحرى يوم « القولى » أنه ذلك  
الفاحص الخبير ...

ثم همهم :

ربما لاحظ المعلم عطب الدراجة ، فسألك عنه ، وربما غاب  
عنه الأمر ، وبذلك تنجو من حسابه وسؤاله ... أقوى النظر هو ؟ ...  
— عينه كعين الصقر ...

— هنا نقطة ضعف في المسألة ... وإمكن ثمة وسائل  
لإنقاذ الموقف ...

— ٧٩ —

.. بربك ساعدنى . . . .

وتشبهت به «الغولى» ، فراح «الأساذشافعى» يعتمر جهته  
برهة ، ثم واجه العصبى مباغتاً إياه قمر له :  
سألقتك بعض جمل قد تنفعك . . . . فإن ما حدث كان قضاء  
وقدرا ، ولا راد لقضاء الله . . . . قل لك سليم النية لم تضمر أى  
سوء... قل إن السيارة حين افتحمت للدراجة أقبلت أنت على  
الدراجة ، تحمىها وتحمى ما عليها من فوارير ، حتى دى جسمك  
وتمزق ثوبك . . . .

ووقف الشاب يتوسم الصبي لخطاب . ثم قال :  
يجب أن يدى جسمك ، وأن . . . . رزق ثوبك . . . .  
— كيف ؟ . . . .

— أعاجز أنت عن أن تחדش نفسك ، وتشق ثوبك ، وتتمرغ  
فى التراب ؟ . . . .

— أليس من هذا بد ؟ . . . .  
— لا بد من ذلك ، لا بد... لا تحاصر لك إلا هذه الوسيلة...  
إن المعلم إذ يراك على هذا النحو يشفق عليك . . . .  
فابتسم «الغولى» ابتسامة العريضة ، وقال :  
أمرك . . . .

وانتهى « الأستاذ شافعى » و « القولى » فاحية من الطريق  
مهمة ، وشرع الصبي يودى لنفسه مهمة الخدش والتزيق والتفرغ؛  
وفق التعليمات المرسومة ، حتى بلغ من ذلك ما أراد . .  
فإن رآه « الأستاذ شافعى » حتى ربت كتفه ، وقال :  
أحسنت . . .

ثم تابع قوله :  
لاتنس أن تتداني إلى الحانوت ، متخاذل المشية ، ذليل  
القسبات ، تتلوى من الألم . . .  
ثم استمر يشرح له الخطوة . ويلقنه الأجوبة ، ويزوده بالنصائح ،  
وبما يواجه به المفاجآت . . .

وبعد أن وعى « القولى » ما سمع ، تها للضى فى الطريق ،  
فنظر إليه « الأستاذ شافعى » مليا ، ثم تصنع ابتسامة وقال :  
أراهن على أنك تريد منى أن أرافك فى مهمتك ، حتى  
أخلصك من سطوة مملك . . .  
فأجاب الفتى فى سداجة :

— أبقاك الله ، وحفظ أولادك .. إن هذا لجميل منك . . .  
وهنا وقف « الأستاذ شافعى » وقفة حزم ، وقال :  
ولكن مسألتك أضاعت من وقتى ساعتين فإذا تبغى منى

— ٨١ —

فوق هذا؟ ... لدى قفزة مهمة لا تخلص من إنجازها، وجلسة  
في النقابة على أن أوجهها ...

فأخذت، ولي، ينزع قائلاً:

! حائف من المعلم ...

وليك، الأستاذ شافعي، يطمش شفتيه في امتعاض، مظهرًا  
التردد والإحجام، ثم بسط ساعده، واستشار ساعة يده الخشبية.  
وداعب ذقنه لحظة، وأخيراً قال:

لابأس ... دقائق أخرى من أجلك ... أنت ولد تستحق  
المساعدة ...

وابتهج « الفولي » بذلك الفوز، فأقبل على يده الأستاذ  
شافعي، يغمرها بقبلائه ...

وأخذ يتوجهاً بوجه حانوت اللبان، فقال « الأستاذ شافعي »:  
عليك أن تتقدمني خطوات، حتى لا يراك أحدمعي؛ فيرتاب  
في الأمر ... إني مراقبك من بعيد، وسأندخل في الوقت المناسب ...  
وأخرج علبة لثفه وفتحها، ثم قذف بها في عرض الشارع  
متسخطاً يقول:

ليس فيها لغائف ...

فقال « الفولي » على الأثر:

— ٨٢ —

— أذهب لأشترى علبة ؟ ...

— لا مانع ...

وأخرج محفظته المتنفخة بالأوراق ؛ وألقى بصره عليها ، ثم  
زوى ما بين حاجبيه ، وقال :  
لاداعى للفائف الآن ..

— ولم ؟ ...

— ليس معنى إلا ورق مالى كبير لا يصرف هنا ...

قال ذلك ، وقد سلب عينيه على كف الفتى ، يريد أن ينفذ  
لبصره إلى الريال ، المختنق فى قبضتها ... فقال : القولى ، وقد  
أحس النقود تضطرب فى يده :

ربما كان من المستطاع صرف ورقة من الورق الكبير ...  
ألا نجرب ؟

فقال : الأستاذ شافعى ، محمدا :

حسبى ما ضاع من وقى ... أتريد أن تفوتنى القضية وجلسة  
النقابة ؟ ...

— لا أحب أن أراك متضايقا ، كما أنت الآن ..

فصاح به الأستاذ شافعى ، صيحة عنيفة :

قلت لك إنى مرتبط بمواعيد ...

— ٨٢ —

فوقف ، الفول ، منكشا ، ثم أخذ يهرش رأسه ، وانسرح  
يفكر ، وهو يردد بصره بين قبضة يده يختزن فيها كنزه وبين  
« الأستاذ شافعي » يقف وقفته العصبية ...

وأخيرا لم يجد بدا من أن يقول :  
أذهب لشراء علبة وأدفع ثمنها بما عندي ... وحين تصرف  
الورقة ترد إلى الثمن ...

— ما هذا الكلام الفارغ يا ولد ؟ ...  
وبعد تمنع ومناقشة ، أقبل ، « الأستاذ شافعي » ، فدیده واتزع  
النقود من يد الصبي ، وهو يقول ...  
وأفضل أن أشتري علبة اللفائف بنفسى ... اسبقنى وأنا  
وراءك ...

وسار الفولى ، يجرّ دراجته المتداعية ، وقوارير اللبن يرتطم  
بعضها ببعض ، وكأنها تتساقط عن مصيرها ، بعد أن تغير البرنامج  
المسوم لها كل يوم ...

تبع « الأستاذ شافعي » ، خطوات الصبي ، وكان كلما تقاع مز.  
الطريق مرحلة ازداد عنه تباعدا ... وبين الفنية والفنية يلتفت  
إليه « الفولى » ، ليشعره بأنه أمامه يهديه السميل ...

وازدحت السابلة أثناء السير، فلاحت الفرصة للأستاذ شافعى،  
كى ينجو بالغنيمة، ولكن عين القولى لم تم عنه، فأفسدت عليه تدبير  
الحرب، وأحس كأنه محصور يخضع لرقابة ذلك الفج العريز...  
على أنه اعتهم بالصبر، وحث خطاه، مزمعا فى دخيلة نفسه  
أن ينتهز أول فرصة للخلاص من تلك الرقابة البلهاء...  
ولكنه ما علم أن ألقى نفسه قبالة حانوت اللبان، حيث تهبأ  
الفتى ليلج بابه، متخاضع الهامة، ذليل الخطأ...

وكانت وجهة الحانوت يضاء مغبرة قدرة، وعلى عتبة الباب  
يتسائل الماء فيملاً البقعة بالأحوال...

ومن خلال زجاج الوجه يترأى مصباح كهربى، يتدلى فى  
نحو مبتذل، ويتمأفات شعاعه الواهن على تمثال رخيص شأنه لحيوان  
أوضح ما فيه ضرع كبير، لا تدرى أبقرة هو، أم لبؤة، أم هرة  
عجوز؟

وخلف هذا شبح كتلة بشرية ضخمة غير واضحة المعالم، يتعالى  
منها صوت متحرج، تشبع فيه رنة السخط، ما أشبهه بخشخشة  
مذياع خرب...!

لمح الأستاذ شافعى، هذا المنظر، وتناهى إليه ذلك الصوت  
فألنى نفسه قد انزوى فى ناحية يتطلع ويتسمع، يدفعه الفضول إلى

تعرف ما يكون . واستطاع أن يتابع في صسوبة خلف زجاج  
الوجه الكدر مشاهد الرواية بين بطلها : المعلم والصبي . . .  
الكتلة البشرية تتحلحل . . .

شيخ الفول ، عن كسب منها يتخاذل تخاذل الظل الناصل أمام  
الضوء الكاشف . . . .

الحشرة تنقلب زجرة حبيسة ، كزجرة الإعصار حين يتبأ  
للزيف . . .

الكتلة تنقض على الظل الناصل ، فإذا هولاعين ولا أثر ...  
الإعصار يعصف ؛ كأنه دوامة مواتجة ، يضعف فيها صراخ  
الاستغاثة المضعضع ...

وما هي إلا أن انقذت من الحانوت إلى الطريق تلك المزة  
الآدمية ، التي تدعى « الفول » ، ينبعث منها تأوه وانتحاب ...  
وسرعان ماتهافت حول الصبي الصريع نقر من الفصولين ، ما كاد  
يتبينهم حتى انطلق يشكو لهم بأساءه وما حل به من ضرب  
وجع ، بلا جريرة ولا ذنب ...

وكان يتطلع يئس ويسرة باحثاً عن منقذه وأمين كنزه الثمين ،  
فلم يره على فرط التفت والتصفح للناس ...

وعمرت الحلقة بعابري السيل ، وأخذ الناس يتدمرون

-- ٨٦ --

ويتبادلون شعور الاستياء من صاحب الخانوت ، بعد أن تجلى لهم ما برح بالفتى من الآلام ، وما أصابه من جراح ...  
 فى هذه اللحظة بزغ المنتقد ... فاخترق الحلقة ، وشرع يتسامل ، وتطلق وجه الفتى ، وتهادت الكتلة البشرية الضخمة بشاربها الغليظ ، وهى تصبح بالجمع أن يتبدد ، خطأ ، الأستاذ شافعى ، خطوة إلى الأمام ، وقد علا بصدره ، وانبرى يسوى رباط رقبته المنتفخ ، يستمد منه الحمية والنشجع .  
 وقال :

هذا الولد مظلوم ، خلىق بالراء ...  
 فأرعد المعلم قائلاً :  
 إنه أخبت مخاتل خداع ...  
 -- وهذه الجراح ؟ ... وتلك الكدمات ؟ ...  
 واقترب ، الأستاذ شافعى ، من الصبي يتحسس أوصاله ، وصاح ملتفتاً إلى الجمع :  
 يلوح لى أنه قد أصيب بكسر فى ترقوته ...  
 فهمم الجمع :  
 ترقوته ؟  
 والتفت ، الأستاذ شافعى ، إلى الصبي ، يقول :

قم يا ولد...  
وما كاد الصبي ينهض ، حتى صاح ، الأستاذ شافعي ، .  
شدًا ما يتألم...  
وفي هذه اللحظة سُمع الصبي يجأر بالشكوى: ويتوجع . . وتابع  
، الأستاذ شافعي ، قوله :  
إنه ليتعذر عليه أن يقيم صلبه . . انظروا إليه : يتهالك على  
الأرض ، مشخنا بجراحه ا .  
وما أسرع أن ارتدى « الفول » ، على الأرض ، فواصل الشاب  
قوله :  
يا لله . . المسكين يكاد يفقد وعيه . . .  
وما إن أتم قوله ، حتى تمدد الصبي خامد الانقاس . . .  
وصاح الشاب يقول :  
هذا ما كنت أخشاه . . . حقا أن ترقوته قد كسرت ، وهذه  
أعراض انكسارها . . . يجب أن تستدعى سيارة الإسعاف ،  
وإلا . . . وإلا أفلتت فرصة العلاج . . .  
طرقت هذه الكلمات سمع المعلم ، فبدأ عليه التعجب والدهش ،  
ولكنه ظل رابط الجأش ، متملكا زمام نفسه ، وافتعل ضحكة  
شنعاء ، قائلا :

ماذا تقول يا أفندي ؟ ... أية ترقية ؟ ... وأى إسعاف ؟ .  
ومد قدمه إلى الصبي يغمزه . ويقول :

قم يا ولد ! .

ولكن ، الفولى ، كان حريصا على الإذعان لنصائح الشاب .  
فلم يبد في رقدته حراكا ... وكان وهو ممدود على أديم الأرض  
تكسو وجهه الجراح ، وتعلو ثيابه الأحوال ، حريا أن يستثير  
مشاعر العطف والإشفاق ...

فتعالت همهمة سخط وتغيّظ بين جمهرة الناس ...

وقال أحدهم بوجه كلامه إلى المعلم

أليس في قلبك ذرة من رحمة ؟ ... إن الولد يجود بنفسه ! .

فصاح « الأستاذ شافعى » ، وقد انحى على الصبي يتحسس :  
الحالة خطيرة ... أخشى أن يكون قد أصيب بنزف

باطنى ... ألا أجد رحما يسعفنا ببعض المنعشات ؟ ...

فهرع جمع من الناس يحضرون الماء والخل ...

وأقبل « الأستاذ شافعى » ، على الصبي يدلكه وينشقه ، ثم تركه

لبعض السابلة يتعهدونه ، وقصد إلى المعلم ، ووقف أمامه وجها لوجه

وقد عمد حاجبيه ، وخطف قلبه العتيد المتداعى ، من جيب سترته

الأعلى ، وجميل يلوح به قائلا :

— ٨٩ —

ألا تعلم أنك عرضت نفسك لمسئولية جنائية صريحة ؟ ...  
فغمغم المعلم ، وقد تغضن جبينه :  
مسئولية جنائية ...

— حقا ... إنها المسئولية خطيرة ، تزج بصاحبها في محكمة  
الجنايات ! ...

وهم المعلم أن يرفع الصوت مستنكرا ، فوجد الكلمات تختنق  
في زوايا حلقه ، وكان ، الأستاذ شافعي ، يرقبه بالنظر الثاقب ،  
فلمح شارب المعلم الضخم المتشائخ يهدل ويتطامن .. فصاح على الأثر :  
لا أقل من سيجن خمس سنين ... أو حسبت أنه لا حساب  
ولا عقاب ؟ ...

وأخيرا استطاع المعلم أن يقول :  
وحضرتك من تكون ؟ ...  
— ألا تعرفني ؟ ...

— لم يسبق لي شرف التعرف ...  
— أنا السكرتير الخاص لمنقابة الطب الشرعي ، وعضو اللجنة  
العليا للإسعاف ...

فأجاب المعلم مختلج الأنفاس :  
وسعادتك بماذا تأمر ؟

— ٩٠ —

-- لا شأن لي بالموضوع ... لا مصلحة لي قط ... على أن  
أبلغ الأمر للسلطات المختصة ... هذا كل ما يجب أن أعمله ،  
أما الإجراءات القضائية فإنها تأخذ مجراها ...  
فقد المعلم «فتح الله» يده إلى كتف «الاستاذ شافعى» ، وجعل  
يربها في ترفق ، ثم اجتذبه من الزحمة ملطفاً ، وهو يقول :  
تعال معى إلى الخانوت نتحدث على مهل ...  
وسار به إلى الخانوت ، وواصل قوله :  
هذا الولد عندى كأحد أبنائى ، وقد ربيته ، وليس بعسير على  
أن أعالجه ، وأن أنفق عليه حتى يذهب عنه مابه ...  
ودخل كلاهما الخانوت ، فعمد المعلم إلى الباب يخلقه ، وشوهد  
شبحاهما من خلال الواجهة الزجاجية ، وقد اتجيا ركنا قصياً ،  
وانبريا يتناقشان ويتحاوران ... ثم شوهدت الكتلة البشرية تدرس  
خفية في يد «الاستاذ شافعى» ، شيئاً لم يكده يلبسه حتى خفت حدته  
في المناقشة ، وانقطع عن اللجاج .  
وخرجا من الخانوت يظللها الصفاء ...  
وسمع الناس «الاستاذ شافعى» يخاطب المعلم بقوله :  
سأتولى الأمر بنفسى ، واسكن كن حكيماً في معاملة الغلام ،  
ولا تدع غضبك يسيطر عليك ! ...

وأمر بإحضار مركبة من مركبات الخيل ، فلما حضرت حمل إليها « القولى » ، ووثب ، « الأستاذ شافعى » ، يتخذ مجلسه بجواره ، ومضت بهما المركبة بين أخلاط الزحام ...  
وما إن ابتعدت عن الحى ، حتى اعتدل « القولى » فى جلسته ، وتطلع إلى وجهه منقذه يتسم ابتسامته البلهاء ، فزجره « الأستاذ شافعى » ، بنظرة حادة ، ثم استل من جيبه « الريال » العتيذ ، ودفع به إلى « القولى » قائلاً له :

خذ نقودك ...

— واللفائف ؟ ...

— لا حاجة لى بها الآن ... حسبي ما أضعت من وقى فى مشكلتك الأولى ، والآخرى ...

ترادفت على يوم هذا الحادث شهور ...  
وظهر فى المنتديات وفى المجالس الكبيرة شابان تزينهما حلة إفريقية ، أحدهما حديد البصريعى برباط رقبته ذى العقدة الضخمة ويصلحها بين حين وحين ، وتراه يتحسس تارة قلم الحبر الثمين ، ذا الغطاء المذهب . وهو مطل من جيب سترته الأعلى ... وبحوار هذا الشاب قى يافع يلزمه ملازمة الظل ، لا تدرى أ أدعى هو بحق أم هو من ذلك النوع البدأى المنقرض من سلاسه الإنسان ،

— ٩٢ —

ذلك الذى تخيله «دارون» حلقة الاتصال بين القرد والبشر؟ ...  
فهو على الرغم من جدة حلته ، يبدو مختل الزى بلا هندام :  
حركات شاذة فى النهوض والسير والتلفت ، وإشارات طائشة يعبرها  
فى غرارة ، وابسامة ... عريضة بلهاء تبتلع وجهه الشتم ...  
ولشد ما يبادره رفيقه بالتعنيف ، إذ يقول له :

قلت لك دع هذه الابسامة ... لا تضحك على هذا النحو ...  
متى تتعلم ؟ ...

فيطلع إليه الفتى على حاله ، لا يكاد يشعر بما قيل له ، ويجب  
شاذج اللهجة :

وماذا تريد منى أن أفعل ؟ ..  
— أريد أن تكون كخلق الله ...  
— ألسنت من خلق الله ؟ ...  
— إنك لحيوان ....  
— طال عمرك ، وبقي أولادك ...

ويتفرج فيه أكثر من ذى قبل ، وتوضح له ضحكة ، كأنها  
تثاؤبة بشعة فينظر إليه الشاب الأنيق نظر الاشتمزاز ، وتعجب  
فى نفسه نزعة جامحة إلى صفعه ، ويلبني كفه تخلقج ، ولكه لا يلبث

-- ٩٣ --

أن يرى نفسه وقد قذف في وجه الفتى ورقة مالية صغيرة ، وهو  
يصبح صيحة الإمرة :

حل "موعد الطعام ، فأغرب عني ، وأرخصني من طلعتك  
بعض الوقت ...

فيتلقف الفتى ورقته مغتبط النفس ، ويقول :

لا حرمني الله فضلك وإحسانك ...

— لا تتأخر ... يجب أن ألقاك في الموعد ...

ثم يجسر كفه عن مبعصمه ، ويلقي بنظرة خاطفة على ساعته  
الذهبية الوهاجة ، ويواصل قوله :

أمامك ساعة ... ستون دقيقة فقط ... فأفهم أنت ؟ ...

— فأفهم بإسعادك البك ، ...

إن وقتي محسوب على ... القضايا يأخذ بعضها برقاب بعض ...

تحذر أن تتخلف ...

— كان الله في العون ...

— إن الله تعالى لم يشأ أن يعيتني بمعرتي بك ... لقد زادت

متاعبي منذ سقطت على ... ولكن ماذا أنا صانع ؟ ... أألقى بك في

عرض الطريق ؟ ... لك رزق ... إنما نطعمكم لوجه الله ...

— عمر الله بيتك !

— اذهب لشأنك... وتذكر موعد اللقاء...

ويخرج « شبه الادمى » يقفز في مرجح ، تراوده شهوات الطعام  
والوان المآكل .

منذ يوم الحادثين التاريخيين : حادث السيارة وحادث المعلم  
فتح الله ، تاحت للأستاذ شافعى ، فرصة تتجلى فيها مواهبه على  
نحو جديد...

فكر في شأن ذلك الصبي ، فرأى أنه إن اتخذ تلميذاً يستخدمه  
في مثل هذه الحالات أصاب منه رزقا حسنا...

وكان « الأستاذ شافعى » فطنا « حصيفا لا يتهور » ، فهو لا يتقدم  
خطوة إلا إذا مهد تقدمه موضعها ، فبدأ يصطنع الصبي على نحو  
يأمن معه الزلل والافتضاح ، واتخذ من حادثة المعلم فتح الله ، أساسا  
للعمل ، فسمى في إلحاق القول « بحل آخر على نحو ما كان » ، وأعاد  
تمثيل الرواية بعد أن أنقن تجربتها ، وأبدع في إخراجها ، وزادها  
فصولا إلى فصول ، فقد كان « الأستاذ شافعى » مجددا حقا في  
أساليبه ، لا يركن إلى طريقة واحدة في الإلمام بمادة والتكرار...  
ولا يكاد ينفض يده من حادثة ، حتى يمضى بربيبته وصنيعته إلى  
صيد جديد !...

صدقت الحكمة القائلة بأن الخط إذا واتى إنسانا ألفه ، فلم

يجد به ، وإذا أخلف لم يكن له من عود ، فالأقدار  
التي أخذت بناصر ، الأستاذ شافعى ، ظلت تمنحه العطف  
والتأييد ...

فقد وقعت يوما حادثة ما أجدرها أن تكون محور تحول في  
خطة ذلك الشاب المغامر ؛ إذ أصيب « القولى » ، فعلا بصدمة  
سيارة كادت تتركه في ذمة المتون ... فما أسرع أن رفع « الأستاذ  
شافعى » الأمر إلى القضاء ، فحكم له بتعويض أدته شركة التأمين  
التي كانت تضمن حوادث هذه السيارة ... فقد ثبت أن الصدمة  
تركت ما يسميه الطب الشرعى : « عاهة مستديمة » ، ولم تكن في الواقع  
عاهة يأبه لأمثالها « القولى » ونظراؤه من ذلك الضرب البشرى ،  
الذى هو عرضة للجسد والاحتمال ...

هنا انفتح لعين « الأستاذ شافعى » مجال تكمن فيه الذخائر  
والكنوز ، هذا المجال المبارك عنوانه :

« العاطفة المستديمة » .

وعلى كراياهم اتخذ الموضوع منحى عمليا لا يخلو من خطر ؛  
إذ وجد « الأستاذ شافعى » نفسه أمام ميدان يتطلب الجهاد في  
جد وإحكام ، ولم يكن هذا ليعيبه ...  
وبذلك أصبح ذات يوم فألقى نفسه مروا ضاحقا لهذا الحيوان

شبه الآدمي، مروضه على نهج مرسوم وخطة مقررة . لغاية واضحة  
تمام الموضوع . . . .

كان عامه أن يتذرع باله . والحلم وتكبد المشاق، يغدق الرحمة  
والحنان أحيانا حتى يبلغ الأمر مبلغ التدليل ، ويقسو تارة أشد  
القساوة حتى يسوم ربيبه سوء العذاب . . . فهو صيدلى يتخذ من  
الأدوية والسموم ما يلائم ملايسات الأحوال ، حتى يستطيع  
بذلك أن يحيل هذا الحيوان شخصية ما هرة تجيد اللعب فى مخاط  
الحياة ؛ كما يجيد البهلولة ففرازاته العالية ، يتطوّر . . . ريسرة ، فى  
حلقات الملاعب . . .

لقد غدا الأستاذ شافعى ، فى حياته الجديدة مبتكرا مخترعا يحتبس  
فى مكتبه ليرسم الخطط ، ويعد التجارب ، فإذا فرغ من رسمها  
وإعدادها عمد إلى صنيعته يلقنه الدرس ، ويريده على ضروب من  
التمرين ، ثم يجزّره معه كما يجزّر الصياد شبكته ، ويرمى به فى  
معمران الحياة وعباب الأحداث ، ثم يجذبه فإذا هو ملو الوفاض  
بالمغم والخيرات . . .

أما القولى ، فكان يسلم قياده لأستاذه ، لا يعصيه ولا يخالفه  
فى أمر أو نهى . .

لقد وهب أستاذه كامل ثقته ، فلم تكن المخاطر تهزه أو تهوله ،

مادام أستاذة هو الذى يدفعه إليها دفعا ...  
لا مزية أن السلامة مكفولة مهما ينله من إصابات ، فما كان  
لأستاذة أن يريد به السوء ! ...

وأخذ الأستاذ شافعى ، يتنقل فى البلاد مصطحبا صنيعته ،  
لا يستقر له قرار فى بلد واحد . يرتاد المصايف والمشاتى . وحسبه أن  
يزج بصيئه فى المزلق والمآزق . فلا تلبث المغاتم أن تنفث إليه باردة  
طيبة لا تكلفه عنتا ... فعاش عيش المترفين المتسعين ، يلقي من  
مائدته فتاتا لربيبة الصبي ، فلتقطه مجورا تفر عيناه ! ...

واتسعت مناطق عمل الشاب ، وازدادت اشروعات بين يديه ،  
فكان يؤثر منها أضخمها تبعة ، وأثقلها كلفة ...

وسارت الأمور على هذا النحو ، وتكاثرت فى جسد « القولى »  
ألوان « العاهات المستديمة » فأصبح كالثوب المرقع ، بقيت فيه  
المزق ، ولعب بأصله العفاء ! ...

وأصبح « القولى » اسم ذائع الصيت فى المشافى والمصححات يقضى  
فيه من أيام عمره أكثر مما يقضيه خارجها ، من أيام السلامة والعافية ...  
وكان ذلك مما يغريه بالمخاطر ويشجعه على اقتحامها ، فإن  
عاش المشافى والمصححات أهأ وأمرأ ، وإن حيانه فى تلك الدور  
لمى حياة رفاهية ومتاع ؛ إذ هو بين يدي الممرضات يتعهدنه ،  
( ٧ — ٢ )

ويلاطفه، ويقدم له أنظف الملابس، وأطيب الطعام والشراب..  
وتعاقبت الأيام، و«القولى» مطمئن بحياته، رافه البسال،  
يعيش فى قفص من عاهاته المستديمة، كما تعيش القوقعة فى محبس  
من صدفتها، أو السلحفاة فى حصن من درعها الصخرية...

ولكن «الاستاذ شافعى» لم يعد يشارك الصبي هذه الطمأنينة،  
فقد سمع مرة من الجراح الذى تولى علاجه أن هذا الصبي لن  
يعيش طويلا، إذا تعرض لصدمة أخرى. فوقع هذا النبأ على  
«الاستاذ شافعى» وقوع الصاعقة، وفكر فى الأمر مليا. واضطر  
أن يخفف من وطأة المغامرات التى يورط فيها ربيبه، وأحاطه  
بمؤفور الرعاية...

وكان كلما خطر بباله أنه قد يفقد «القولى» يوما، شعر بصرح  
آماله يتقوض، وتأمل فى نفسه، فلم يجد أنه قد أدرج مما كسب  
شينا لمثل هذا اليوم، اليوم العصيب المنتظر... فقد كانت المائدة  
الخضراء، ومناضد الشراب، ومجالس الغواني، تتناهب كسبه،  
فلا تبقى ولا تذر...

هل من سبيل لإنقاذه من تلك الكارثة التى توشك أن تحيق  
به، فتسلبه إلى البوار؟...

كان مرة فى «السينما» فشاهد رواية إجرامية، دارت

أحداثها حول استغلال التأمين على الحياة، نخابه الموضوع، وراقة  
الفكرة، ومضى يتساءل :

أما يجوز له أن يتخذ من موضوع التأمين سلبا لإنقاذ مستقبله ؟  
لسم لا ؟ ...

وجلس إلى مكتبه ، وقد علت سحنه تلك المسحة الشريرة ،  
وأحس من قرارة نفسه باعثا يحدوه على عمل فاصل وأمر محتوم ...  
إنها الورقة الراجعة الكبرى ، أملا يقامر بها ؟ .. إن حياته كلها  
كانت اليوم ربما لا خسران معه ، فليجرب هذه المرة أيضا  
مواتاة حظه ، وإنه لعل يقين أنه لن يتذكر له ...

عليه أن يضرب الضربة الحاسمة ، حتى تغنيه عن تلك  
المغامرات الصغيرة التافهة التي هي غلالات عجايب .

في هذه اللحظة طالعته صورة للفولي ملقاة على مكتبه ، وهو  
يتسم ابتسامة تكشف عن قسمااته الحيوانية ؛ كأنه يذكره بفضله  
عليه ، فتأمل الصورة حينما بعين مغيظة ، وما عثم أن قذف بها  
بعيدا ، وراح يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ...

« الفولي ، ... من هو ؟ .. بل ما هو ؟ ... » غر مأفون ،  
وسيموت يوما ، ما من ذلك بد ، فماذا إن تقدم به الأجل ؟ ... كثير  
غيره من كرام القوم وسراة الناس تجرى عليهم سنة الموت ، وهم

فَيَرْتَقِ العَمْرُ ، وَفِي الصَّبَا النَضْرُ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَسِيرُ الدُّنْيَا وَلَا تَفْتَأُ تَسِيرًا ...  
 « الفولى » ... إِنَّهُ مَيِّتٌ لَا مَحَالَةَ ... وَلَكِنْ الْمَهْمُ مِنْ أَمْرِهِ  
 إِذْنُ أَنْ يَمُوتَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُنَاسِبِ ، فَيُضْمَنُ  
 لِمَوْتِهِ قِيَمَةٌ لَا تُضَيِّعُ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ جِزَاءَ لَوْلَى نِعْمَتِهِ ، الَّذِي أَنْتَشِلَهُ  
 مِنَ الْخَضِيضِ ، وَرَفَعَهُ فِي مَرَاتِبِ الْحَيَاةِ دَرَجَاتٍ ...

نُفْرَجُ الْبَابَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ عَنْ « الْفَوْلَى » ، يَجِبُ فِي حُلَّتِهِ  
 الْجَدِيدَةِ غَيْرِ الْمُهَنْدَمَةِ ، وَهُوَ يَحْيَى « الْأَسْتَاذُ شَافِعِي » ، بِتِلْكَ  
 الْإِبْتِسَامَةِ الْمُثِيرَةِ لِلْأَعْصَابِ ...

فَتَدَانِي مِنْهُ « الْأَسْتَاذُ شَافِعِي » ، وَرَبَّتْ كَتْفُهُ ، وَهُوَ يَقُولُ :  
 سَنُخْرِجُ مَعًا ... أَمْتَاهِبُ أَنْتَ ؟ ...  
 — أَنَا طَوْعَ أَمْرِكَ ... إِلَى أَيْنَ ؟

— سَنَمْضِي إِلَى بَعْضِ زِيَارَاتِ ... زِيَارَاتِ هَيْئَةِ ...  
 ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جِيْبِهِ عُلْبَةً لِفَائِفٍ ، وَرَمَى بِهَا نَحْوَ « الْفَوْلَى » ، فِي  
 مَلَاطِظَةٍ وَمَعَابَثَةٍ ، فَلَقَقَهَا الصَّبَى ، وَهُوَ يَتَرَنَّمُ مِنْ طَرَبٍ ...  
 مَضِيًا ... مُتَجَهِّينَ إِلَى إِحْدَى شَرَكَاتِ التَّأْمِينِ .

وَانْتَقَضَى أَسْبُوعَانِ ، وَ « الْأَسْتَاذُ شَافِعِي » ، يَصْطَلِحُ رِيْبِيَه  
 مُتَقِلًا بِهِ بَيْنَ شَرَكَاتِ التَّأْمِينِ ، يَعْرِضُهُ عَلَيْهَا مُسْتَشِيرًا إِيَّاهَا فِي  
 التَّأْمِينِ عَلَى حَيَاتِهِ .

وكان يساوم ويقاضل ، ويستخبر مختلف الجداول المزدحة  
بالأرقام ، حتى استقر قراره بعد لآي ، على اختيار إحدى الشركات  
السخبة في شروطها ، وبدأت بعد ذلك إجراءات الفحص الطبي ،  
فطرح « الفولى » بين يدي الأطباء يقلبونه كما يقلبون البضاعة المزجاة ،  
متفحصين إياه في عناية واهتمام وحذر ، واستعانوا في فحصهم بتحليل  
الدم وبتأخذ الصور لأوصال الجسم المختلفة ، والصبي في أثناء ذلك  
لا يحاول أن يفكر في اكتناه الغاية مما يرى وما يسمع . حسب  
أن يحس القبلة والانشراح والاعتزاز بذلك الجمع المحتشد ، من  
حواله ، يشمل به باهتمام ملحوظ . . .

وبعد محاولات ومداورات حررت وثيقة التأمين ، فدسها  
« الأستاذ شافعى » في جيبه في عناية واحتراس . . . وما إن ترك  
المكان حتى النفث إلى « الفولى » يقول له وعيناه تلتصعان التماعة  
الفوز والمرح :

أتعلم ماذا كان من أمرك الساعة ؟ . . .

— ماذا ؟

فوقف « الأستاذ شافعى » يتأمله بعيني النسر الشره ، ثم قال :  
إن حياتك التي لم تكن تساوى قشرة بصلة يا سيد « فولى » ، قد  
أصبحت منذ اللحظة تساوى آلافا من الجنهات . . .

— ١٠٢ —

فحلق «الفولى» مبتهجا، محتاج الخاطر، ينشق فيه عن ابتسامته  
الكريمة البلهاء، وهمهم :

كيف ... كيف هذا ؟ ...

— ذلك هو الواقع ... لقد رفعتك من لا شيء إلى كل شيء،  
لقد جعلت حياتك قيمة غالية ... افهم أنك أصبحت الآن عظيما  
جدا أيها الحيوان ...

فتضاحك «الفولى»، متوخي الاعتفاف ؛ وقال :

طال عمرك ؛ وبقى أولادك ...

هنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ صلة «الفولى» بأستاذه  
الشافعى ؛ مرحلة ، يلعب فيها القدر لعبته الكبرى ...

لقد آمن «الأستاذ شافعى» على حياة «الفولى» بمبلغ ضخم ،  
وجعل نفسه وارثه الأوحد ...

لقد توضحيت المسألة ...

إن الذى كان يخشى «الأستاذ شافعى» وقوعه قبل اليوم، أصبح  
الساعة هو الذى يشتهيه ويتعجله، ويرى فيه فردوس أحلامه ...

عليه الآن أن يعمل بجد ...

وسرعان ما شمر عن ساعد الاهتمام ، واستأنف مراجعته

لمشروعاته، ينمقها ويحيد آخر اجها، ويحملها بما يجعلها أحد وأمضى ...

— ١٠٣ —

وتأهب « الفولى » لخوض المغامرات بعد فترة الراحة والاستجمام... كانت الخطط السابقة تنسم بالحيطه والحذر ، ولكن الخطط الحاضرة ، يتجسم فيها التهور والتعرض للتهلكة... وشرع « الفولى » يدرك ببصيرته الحيوانية ، ببصيرته التي تنيرها غرائز الحرص على البقاء ، أن ثمة عنصرا جديدا قد اندس في مغامرات اليوم... ولكن ماهو ؟...

ذلك مالم يستطاع التطفن إليه ، والكشف عنه... وأحس يوما في إحدى المغامرات يد « الأستاذ شافعى » تدفعه دفعا ، تحت عجلات السيارة ، على حين أن الخطط في سوائف المغامرات كانت تلزم « الأستاذ شافعى » أن يظل بعيدا عن الأنظار ، حتى تقع الواقعة...

وماهى إلا أن وجد « الفولى » نفسه فجأة يحجم ويتمنع ويتوقى ، فكان الإخفاق نصيب المغامرات المدبرة ، وتأصلت في قلب « الفولى » مخاوف لم يكن يدرك تمام الإدراك مأتاها... فكان وهو على أهبة التقحم في مبدان الخطر يشعر في اللحظة الحاسمة بما يزين له التراجع والفرار ، فإذا هو قد جانب الميدان ، وأطلق ساقيه للريح... أثار هذا الإخفاق المتتابع غضب « الأستاذ شافعى » ، فكان

يعنف برأيه أفسى تعنيف ، ويحضنه على الإقدام والتشجيع ، ويسأله :  
 ماذا أصابه حتى فقد رباطة جأشه وخفة حركته ؟ ...  
 فلا يجيب « الفولى » إلا بما ينطبع على وجهه من سهوم وحيرة  
 وارتياح ...

وكثيرا ما هم « الأستاذ شافعى » أن ينحى على رأيه بالضرب  
 الموجع ولكنه كان يراجع نفسه ، ولا يلبث أن يقبل عليه بلاطفه  
 ويتملقه ، ويلينه بمعول الأمانى ... فكان « الفولى » يحدق  
 فيه طويلا ، بعينه الكائيتين الكئيتين ؛ كأنه يريد أن يستكنة  
 هذا الملق ، وما ينطوى عليه من سر ...

وسرعان ما ينخرط فى بكاء وانتحاب ، وتستبد به الوحشة  
 والانقباض ؛ كأنه ناته يضرب فى يدهاء ماحله تعوى فيها الرياح ...  
 احتلت براجم « الأستاذ شافعى » كل الاختلال ، وخلا إلى  
 نفسه ، يتساءل فى أمر هذا الصبي المعتوه ، وما عراه من تغير حال ...  
 أى شيء أصاب الصبي ، حتى جعله يتخذ خطوة أخرى فى  
 مجابهة الصعاب ، وملاقاة المخاطر ؟ ...

لقد كان من قبل مدعنا لإرشاد أستاذه ، منجزا لخططه فى  
 استسلام واطمئنان ، لا تقصير ولا عصيان ...  
 فما خطبه اليوم يحجم ، ولا يبدو طيعا كما كان ؟ ...

ماذا جرى ؟ . .

هل أحس أن نيسة سيده قد تغيرت نحوه . وأنه يأتمر به  
فيها كما ؟ ...

لا ريب في أن الصبي هو هو . فمقله هو عمله . وفطنته هي  
فطنته . ليس بقادر على أن يستشف مجهولا . ولأن يستبطن شيئا  
بما غاب ...

أتمتة وسيلة أخرى إذن غير العقل والفطنة تكشف عن البصائر ،  
وتجلى السرائر . وتوضح بها النيات ؟ ...

أفى استطاع الغرائز — غير مستعينة بالعقل والإدراك —  
أن تستشف من حقائق الحياة وغيوب الدايير ما قد تعيا به العقول  
والفطن ؟ ...

كان « القولى » مستسلما مطمئنا ، يوم كانت نيات أستاذه « الشافعى »  
نحوه بيضاء ، لا تريد له هلاكا . بل تبغى حمايته والاحتفاظ به . .  
ولكن الصبي اليوم ينقلب إلى الضد . فتبقيه ويحذره ويستريب  
به . لا لسبب إلا أن « الأستاذ شافعى » فى سريرة نفسه التى  
لا يلبها أحد . قد فكر فى الخلاص من ربيبه . .

أترى « القولى » ، بواعيته الخفية قد أحس ذلك الانقلاب فيما  
يهدف إليه أستاذه من أغراض ؟ ...

عالج ، الأستاذ شافعى ، ريبه بمختلف الذرائع وأشتات  
 المنريات ، وإذ يضيق به ذرعا ، لا يجد بدا من أن يتقصده  
 بالضرب المبرح ، والإيذاء الآليم ...  
 فكان « الفولى » يحتمل الأذى فى صبر وجلد ، لا يروك منه  
 إلا كشرة ضارية تعلو فيه ؛ كما تكشر الذئاب المتأهية الاتهاش ...  
 ولا يكاد « الأستاذ شافعى » يرى « الفولى » قد كشر عن  
 أسنانه على هذه الصورة البشعة ، حتى يتقمقر منه ، وقد أوجس  
 خيفة منه ...

وانتهى الأمر بأن أعلن « الفولى » جهره لإضرابه عن تنفيذ أى  
 مشروع يراد عليه ، فأسقط فى يد أستاذه « الشافعى » ، وذهبت  
 محاولته كلها أدراج الرياح ... وتلبس « الفولى » بعناد ، كما يعاند  
 الحمار إذا حرن ، وتأبى أن يتزحزح عن موقفه ، مهما يكن من  
 أمره ...

ونشبت بين الصبي ومروضه عداوة مضطربة ، كان من العيث  
 إختاؤها ... وكان « الأستاذ شافعى » يكشف صبيه بالعداء  
 فى ضجة وعنف فأما الصبي فقد ظل منطويا على ضعفه الخبيء ،  
 يجلس الساحات الطوال فى ركن من الحجرة وحيدا يحقد فى  
 الفضاء أمامه ، بعين تائهة حيرى ، وفد يفيق بغتة من غشيته على

أثر رجفة تنتظم أوصاله ؛ إذ يترامى في تخيلته « الأستاذ شافعى »  
وقد عاجله بضربة على أم رأسه ، تسقطه مضرجا بدمه ...

وكم من مرة جمعت بينهما حجرة واحدة ... « الأستاذ شافعى »  
جالس إلى مكتبه ، وهو عابس يتنفخ ، والصبي متجمع في ركن  
قصي يخالس أستاذه النظر ، فكلما تلاقت عيونهما ألني « الفولى »  
نفسه يصير بأسنانه صريرا لا يخطئه السمع ، وقد انفرجت شفتاه ،  
وتحفز للذود عن نفسه وحياطتها من كل مكروه ...

تواصلت الأيام « والفولى » غريق في عناده وكآبته وصمته  
وبدا « الأستاذ شافعى » يجد ربح الأزمة المقبلة ، فجن جنونه ،  
وأقبل على ذكاته يهزه ويعتصره ، ولكن عزّ المعين !

ومرة كان الغريمان على حالهما في حجرة المكتب ، وإذا  
« الأستاذ شافعى » ينمض واجف الاوصال من الغضب ، مكفهر  
الوجه من الغيظ ، وصاح « بالفولى ، قائلا :  
تعال هنا يا ولد ... !

فرماه « الفولى » بنظرة نكراء ، ولم يبد من حراك ... !  
فردد « الأستاذ شافعى » صيحته :

تعال هنا يا ولد ... ! هل خرسيت ؟ ... !

— ١٠٨ —

فأشاح « الفولى » برأسه يابى الاستجابة للأمر ، نخطا إليه  
« الأستاذ شافعى » ، فما إن رآه « الفولى » مقبلا حتى نهض دفعة  
واحدة ، فزار « الأستاذ شافعى » قائلا :

لماذا لا تطيع أمرى ؟ ...

فهمهم « الفولى » فى صوت محتم كظيم ، وقد علت وجهه  
سحابة كدرة مفرعة :

هكذا فعلت ا... !

— وإنك لتتوقع فى القول ؟

— هكذا أنا ا... !

فنفرت أوداج « الأستاذ شافعى » ، والنق يده تتعالى ، ثم تهبط  
بصفعة عاصفة ، قاهتز لها كيان الصبي ، ولكنه لم يزل عن موقفه ،  
وكل ما كان منه أنه انقلبت عيناه بقعنى دم فائر ... وهمهم وهو  
يصرّ بأسنانه صريرا يكاد يحطمها :

لا تضرب ا... !

فحمس « الأستاذ شافعى » ، وصاح مجلجلا بصوته :

أضربك وأضرب شياطين أهلك ا... !

فتابع الصبي صرير أسنانه ، وجمجم .

قلت لك لا تضرب ا... !

— ١٠٩ —

— إنك خارج الآن معى . . .

— كلا . . .

— قلت لك إنك خارج . . .

— لن أخرج . . .

وارتفعت يده الأستاذ شافعى ، ، وما كادت تهبط بصفتها حتى التفت بيده متحجرة جبارة ، تمسك بها فى قساوة وعنف . . . وسرعان ما التحم الخصمان وكانت معركة حامية الوطيس ، معركة تجرى على القطرة ، كل خصم يحرص ، على أن ينال من خصمه جهد ما يستطيع ، بكل ما أوتى من قوة وشراسة . . . فكانت الضربات تهاوى هنا وهناك ، وكان الخش والחדش يتناثران ، ذات اليمين وذات الشمال . . .

وإن أحدهما ليقبض على خصلة شعر خصمه ، فلا ينزع يده إلا وقد اجتنها من أصولها . . .

لقد توارت إنسانية الخصمين ، فلم يبق منهما إلا صورة الحيوانية الباغية الطاغية ، لا تعرف غير الضراوة والإتراس . . . وجرت المعركة ، لا يسمع فيها إلا هدير الأنفاس ، والارتطام بالحوائط والأثاث ، ووتع اللكمات والضربات . . . وتدانى الجسدان من الشفقة ، وسرعان ما اشتبك فى عراك

— ١١٠ —

على سورها ، ثم ألفيا نفسيهما بغتة يسقطان متخبطين في الهواء ...  
ولم تكذب صيحتهما تعلو ، حتى ذهب بها صوت سقطتهما  
العنيفة من حلق ...

فارتعى الجسدان هامدين ! ...  
وتجمع حولهما السابلة ، وبعد حين تهادى الشرطى ، والناس  
حولهم يصفون له ما وقع في تضارب واختلال ...

في هذه اللحظة الهوجاء ، وقعت عين الشرطى على شيء أيضا  
يطل من جيب « الأستاذ شافعى » ؛ وكأن هذا الشيء يحاول جهد  
الإمكان أن يفسح له مساحة في عالم النور ، ليعلن وجوده  
في وضوح ...

فاجتذبه الشرطى يتعرف ما هو ؟ ... فإذا هو غلاف كبير ،  
مكتوب على جبينه بالخط العريض :  
وثيقة التأمين على الحياة ! ...

# ذات اللثام

سيدى :

لا ريب أنك تعجبين ، إذ أوجه إليك هذه الرسالة ، بعد أن  
انقضى ما بيننا من أسباب التواصل الروحى ، منذ عشرات السنين..  
لقد عارفنا في مؤتلف الشباب ، ولكنى الآن أسأل نفسى :  
على أى نحو كان هذا التعارف ؟ ...  
ثمة صلة سلفت بيننا ، ما أعجبها من صلة ... است أدري فى يومى  
هذا ، ماذا كان لونها على وجه التحقيق ؟ ..  
كنا نعد نفسينا صديقين ، أوفى ما نكون تصافيا ومودة ، على  
حين أننا ظللنا لا يرى أحدا صاحبها فى عالم المنظور ، وإن تجلى كلالا  
على أخيه فى عالم الأطياف ، ودنيا الأرواح ...  
وما أنسى أن هذا التواصل الروحى كان أسمى مكانة وأروع  
مقاما من مألوف الصداقات بين الناس ...  
تواصل امتد بيننا عاما وبعض عام ، ثم انطويت صفحته بعد ذلك  
مدى هذه الأعوام الطوال ...  
لئن حين أنبش ذلك الماضى السحيق ، أسائل نفسى فى حيرة وعجب :

أكان بيننا حقا هذا التواصل الروحي ، أم أنه باطل من الوهم  
والوسواس ؟ ...

ولكن أنى لوهم كاذب ، ووسواس باطل ، أن يتمنخض عن  
تلك الحقائق الناصبة التي وجهت حياتي وجهة معينة ؟ ...  
آدمية أنت حقا ، عشت في هذه الدنيا كما أنا أعيش ، أم كنت  
خيالا صاغه القدر لي مزحة وملهاة ؟ ...

اليقين الذي لا يخاطله ظن أن تراسلا كان بيننا ، إبان ذلك  
التواصل الروحي ، فقد تناهت إلى رسائل منك ، أما رسائلي إليك  
فكانت مقطعات شعرية ، أنظمتها وأنشرها في إحدى الصحف ؛  
لتكون جواب رسائلك إلى ...

لم يكن من سبب مادي بيني وبينك إلا تلك الرسائل ، وإنه  
لعزير على أن أتفقدتها الآن ، فلا أجدها واحدة أبقتالي تصاريف  
الأيام . واحدة تؤكد ثقتي بأنك كنت شخصا حقيقيا ، لاطيفا  
ولا عروس أحلام ...

شد ما بحثت عن هذه الرسائل ، فلم أعثر لها على أثر ، وقد  
كانت في الأمس البعيد ذخر خزائني ، أحرص عليها حرص الشحيح  
على نفيس المتاع ...

كانت قبلي التي أوجه نحوها وجهي ، أتملاها وأستعلى منها

إلهامى ، بل كانت حافزى الذى يدفع بى 'قد' ما فى غمرة العيش  
ومزدحم الحياة .

هأنذا اليوم أتنفس أنفاس شيخوخة هادئة رخية، لا يروغنى  
شئ من جماح الشباب ، وثورة العواطف، فإذا دهانى الساعة حتى  
خطرت أنت يبالى، وهيمنت على نفسى، وأصبحت لى شغلا شاغلا؟  
كنت أقلب منذ قليل كتابا من كتي القديمة ، فاسترعى انتباهى  
وريقة لعبت بها يد البلى مدسوسة بين الصحف ، وفى تلك الوريقة  
تبينت حروفا ناصلة، واستطعت بعد لآى أن أقرأ بها آياتا من  
شعرى العتيق ، تضمنت نفثة من الصدر ، وبثة من الجوى ...  
هذه الآيات هى إحدى رسائل إليك ...

قرأت ما فى الوريقة ، فلم يهتز قلبى لما حوت ...  
إنه شعر من هذا العبث الذى تجرى به أقلام الشعارير، ولطالما  
سودت الأوراق بمثل هذه الآيات العجاف ...

قصارى ما كان من وقع هذه الوريقة البالية فى نفسى أنها أثارت  
سوالف أشجان ، ورواقد ذكريات ، فإذا أنا أمام عهد قديم  
ينفض عنه الغبار، ويخلع الدثار، وتتجلى به تلك الفترة الشاذة من  
أيامى ، وإذا أنت - ياسيدتى - تبدين قبالى ، فأستشرف طيفك  
بعد غيبة حقبة ترابط فيها عقود من السنين ...

إنك لتعودين اللحظة إلى ، وإخالك تبسمين ، وكأني بك  
تمسين قاتلة لي :

قد أكون طيفاً ، وقد أكون وهماً ، ولكن ما برح لي ، وجود  
ثابت في نفسك ، وأثر باق في حياتك ، هيات أن يسبل الزمان  
عليه ستر العفاء ...

حقاً إنك لا تثر لا بتطرق إليه الفناء ، وكيف يمحي وحياتي  
الراهة في وضعها القائم ليست إلا صوغ يمينك ، وخلق إرادتك .  
وما يسوغ لي أن أكون المنكر الجحود ...

قد تكونين اليوم في ربة الحياة ، وقد تكونين في ذمة المنون .  
وقد تكونين فكرة من نسج الوهم والخيال ... ولكن هذا لا يردني  
عن أن أخط تلك الرسالة . أعبر فيها عن بعض ما هو كامن راسب  
في وليجة نفسي .

أعترف الساعة بأن تلك العاطفة السالفة لم تكن إلا ضرباً من  
الحب القاهر ... وعلى الرغم من فورة عاطفتي يومئذ ، فإنني لم  
أكاشفك بدقائق شأني ، فكل مانا جيتك به مقطعات شعرية جياشة  
ملتبة شديدة الإغراق في الخيال ...

والآن ، بعد انقضاء ذلك الزمن المديد ، أراني شيقاً إلى أن أفضي  
إليك بذات نفسي ، وأصارحك بما لم يحويه القلم يومذاك من أمرى .

لقد حان أن أطلعك على طوايا حياتي ؛ فذلك هو أنسب  
الأوقات للكاشفة والإفصاح ...

لم أكن أفض إليك بهذه الحقائق ، إبان تواصلنا بذلك البريد  
العجيب ؟ ...

لم لبث أكتمها تلك الأعوام ولم أفكر في الإفشاء بها إلا اليوم ؟  
أما كان خليقا بي أن أباديك بكل شيء في فترة التواصل ،  
الشباب جديد ؟ ...

ثمة قوة خفية كانت تسيطر عليّ ، وتصرف أمري ، ولا تدعني  
أقطع من دونها رأيا ...

ماذا كان يحدث ، لو كنت أفضيت إليك بكل شيء عندي ؟ ...  
ماذا كان يحدث ، لو كنت رأيتك ، وتم لي لقاءك ؟ ...  
أكانت الأمور تجري في أعنتها التي جرت فيها ، وتسلم إلى  
ما أسلمت إليه من مصائر ؟

لقد كانت معرفتي إياك على ذلك الوجه ، مفصلا في حياتي  
بين عهدين :

ماض بغيض ا ...

ومستقبل بهيج ا ...

رسالتي إليك الساعة عرفان بجميلك ، وإقرار بما كان لتعارفنا

من فضل في نقلتي من ضيقة وظلمة وإفقار ، إلى ميسرة ونضارة ورُواء  
حقاً إن الإنسان أعجوبة الدهر ...

إبه اختزن بين جنبيه قوى عجيبة تزخر بها نفسه ، وإن  
نيرة النفس من هذه القوى لتظل محجوبة مستورة ، قد لا يدري  
صاحبها من أمرها أى شيء ...

وإعجابه لا يرى . يتلمس خارج نفسه السبيل إلى تحقيق رغباه  
في السعادة والهناء ...

ألا إنه لو أنصف لعدل ببصره إلى أغوار نفسه يسبرها ؛ ليكشف  
فيها عن تلك الكنوز ، يملأ منها وطابه ما وسعه أن يملأ ...  
تلك الكنوز من النشاط والفورة وأسباب الرغادة والإسعاد ...  
تلك الكنوز من الآمال والمطامح التي تنوهج جذوتها ، فتشيع في  
أقطار النفس الحرارة والحيمة والانبعاث ...

ولكن العضلة المستعصية هي : كيف يستدنى المرء إلى  
مفتاح تلك الكنوز ؟ وكيف يتعرف مكانها من قرارة نفسه ؟  
في أساطير الأولين حديث عن امرأة سحرية إذا وفق إليها  
امرؤ تسنى له أن يستبين على صفحتها خبايا ما تشرده إليه نفسه من  
أوطار ورغاب ، فلا يلبث أن يسلك الطريق إليها على هدى ونور ...  
ولقد تاح لي أن أجد هذه المرأة السحرية التي دلتني على ذلك

المفتاح المنشود ، وهدتني السبيل إلى مكان الكنز السكين ...  
كنت أنت مرآتي السحرية ...  
بك تجلي لي جوهر نفسي ، وتقشعت الغشاوة عن بصيرتي ،  
وانزاح لي القناع عن سر الحياة ...  
لقيتك وأنا في حالة من الإفقار والبأساء ، تدفّ حوالى أجنحة  
البأس . فإذا أنت تخرجيني من حال إلى حال ، وتهديني في الحياة  
صراطا سويا ، كأني منه في روضة غناء !  
يومئذ كنت قريب عهد بفقد أبي ، عائلتي الذي لا عوض لي  
منه ، بل كل ما كان لي من ذوى القربى ... ولم أكن قد استكملت  
دراستي بعد ... وما كانت سني تزيد علي الثامنة عشرة ... فوجدتني  
بين عشية وضحاها وحيدا منقطعا ، لا عون لي على الحياة إلا ميراثي  
من معاش أبي ، وهو مبلغ ضئيل لا يسد فاقة ، ولا يكاد يغني من  
جوع . فاضطرت أتخلف عن الدرس ، وأن أقنع بغرفة في  
سطح منزل في زقاق ...  
وتطلعت نفسي إلى عمل أتقوت به ، ولكن ما كان أشق علي  
أن أبلغ في هذا السبيل مأربا ، فإنني شئت تنشئة دلال وانهكال ،  
فلما صرت فردا في معترك الحياة أحسست الحجل والتهيب ، وقر  
في ذهني أني لا أجيد عملا ولا أصبر على جهد ، وقد زاولت شكولا

من الأعمال، فكان نصيبي الإخفاق الوشيك، واعتقدت أنى لست  
إلا آلة علاها الصدا قبل أوانه، فأكل منها حتى تعطلت... وساورتني  
فكرة الانتحار، ولكن من أين لو اهن النفس، خوًا أو العزم، أن  
يمارس هذا العمل المتهور الجسور...!

وقبعت في غرفتي، مستخذية متخاذلا، لا أرى مكانى، وأصبحت  
كأنما أنا حيوان تغور لا يأنس بشيء، حتى ليضيق بالنور  
وبلغ بي الشظف أشد مبلغ، واضطربت في الحال أسوأ مضطرب:  
شعر أشعث أغبر، وكساء خلّلق رث، ومطعم تافه غث، ونوم  
قلبي، وبقطة حاملة...!

وكان لي في عهد الدراسة ميل إلى الأدب، وولع بالشعر،  
فلم أجد متفهما في وحدتي الجافية الجوفاء إلا أن أطالع بعض  
ما عندي من دواوين الشعراء، ووجدتني مغرى بالشعر الصوفي،  
والغزل العذري، فأقبلت عليه أتخذه لي مناعا وسلوى. وكنت  
أراني بعد أن أرتوى من المطالعة؛ كأنما قد خفّت بي أجنحة إلى  
آفاق علوية، وهامت بي في أودية الأحلام...!

وترادفت على أيام تطالعتني بهذه الحياة العجيبة التي لذت لي،  
فجريت في عنانها طلقاً جموحاً...

ويوما، وأنا في غمرة هذه المطالعات لأشعار المنصوفة

والعذريين ، وقع لى حادث طارىء ، لا أدرى أكان وقوعه فى  
أحلام اليقظة أم فى رؤى المنام ؟ ...

لقد تراءى لى وجه نسوى فاتن ، وإنى لأصفه بالفتنة على حين  
أنى أتبين من قسماته شيئا ...

لمح لى هذا المحيا خلف خمار ايس بالشفيق ولا بالكثيف فكنت  
أحس فنته ، كما يحس المرء حرارة الشمس خلف الغمام .

لبث هذا المحيا قبالى فترة قصيرة ، شعرت أثناءها بقوة سحرية  
تجذبني إليه ، وتصلني به ، وماعتم المحيا أن توارى عني ...

ولو جاز لى أن أعتقد أن ذلك كان رؤيا ، لكانت هذه الرؤيا  
ضربا فريدا لا عهد لى بمثله من قبل ، فإنها أودعت قلبي أثرا ملا  
على أفطار نفسي جميعا ، وشغل وقتي كله !

وانصرم يومان قضيتهما كما أقضى سوائف أيامي : محتبسا في  
وكرى ، أطالع تارة وأتأمل تارة أخرى ، لا ينقطع تفكيري لحظة  
عن ذلك الطيف العجيب ، وتلك الرؤيا الغامضة ، أحاول عبثا  
أن أكتنه السر فى حيرة واضطراب .

وفى أمسية يومى الثالث ، تبليج لعيني ذلك المحيا الصبح ،  
على حاله التى رأيت فيها أول مرة ، بيد أنه الساعة اسطع  
نورا وبهاء ... وأحسست كأنه يناحيني ...

— ١٢٠ —

لم تختلج له شفة ، ولم يند عن فمه صوت . ولكن مناجاته  
كانت جليلة وضاحية ترسل إلى أعماق نفسى ...

أقد تأدت إلى تلك النجوى معانى صافية ، وإن لم تتخذ لها  
أوضاعا من كلمات وحروف ...

ما شأن الحروف والكلمات بحديث النفوس ونجواها ؟ ...  
إن تلك الرموز من ألفاظ ومصطلحات ميدانها العقل وحده ،  
فأما النفس فإنها فى غنية عن ذلك ، بما لها من قدرة على تفهم  
العواطف ، والتقاط المشاعر واكتناه السرائر ...

لم تكن الحروف والكلمات إلا وسائل وقوالب لإبلاغ المعانى  
والصور ، فليت شعرى ما حاجة المرء إلى هذه الوسائل والذرائع ،  
إذا أوتيت النفس قوة الإبلاغ والتراسل فى صمت وسكون ؟ ...  
وأيهما أصدق فى الإبلاغ والتعبير ؟ ... أن يتم التواصل  
بأساليب من الترجمة يتعاورها الإخلال والنقص والقصور ، أو أن  
يكون التواصل مباشرا تتجلى به نفس على نفس ، وتمتزج به روح  
بروح ؟ ...

أليس كلما استنارت البصائر ، وصفا جوهر النفوس ،  
وترفعت الأرواح عن مظاهر الحياة المألوفة ، كان التواصل أروع  
وأسمى ، والتفاهم أدق وأوفى ؟ ..

— ١٢١ —

لم أكد أخاص من نشوق بهذه الزورة الثانية ، حتى شعرت  
بإثراق في وجداني ؛ وألفيتني كأتني ألم شعبي ؛ وأتجه وجهة  
معينة ، وأتخذ لي غاية مرسومة ، وإذا بي أخط على القراطاس  
بأكورة شعري ...

كانت هذه الآيات تحية لذلك الطيف ، جعلت عنوانها :  
« إلى ذات اللثام ! ... »

وما إن أتممت نظفها ، حتى رحت أتغنى بها ، مستعيدا متطربا ،  
يملكني زهو وإعجاب ...

وعزّ عليّ أن أستأثر بهذا الإعجاب لنفسى ، ورأيت أن من  
حق الناس أن يشركوني فيه .

إن الأكثر إذا ضن به صاحبه على أعين الناس ، أضحي لاشأن  
له ولا خطر ... قيمة الكنز في معرفة الناس إياه ، وانتفاعهم به ...  
ولكن ، أى ناس أولئك الذين يعينني أن يشركوني المتعة  
بهذا الشعر الذى أودعته قبسة من الروح ؟ ...

ليس يعينني أن يطلع أحد على هذه الآيات ، قدر ما يعينني  
أن تقرأها هي ...

هي ...

من تكون ؟ ...

طيف يزورني في هدأة من الليل ...  
أيسكون لهذا الطيف وجود في عالم الأحياء ؟ ...  
وشردت بز الأفكار كل مشرد ، وعرائي أرتياب في شأني ؛  
أصبح أنا سليم الفكر ؟ ... أم أسير هوا جس ووساوس تدعني  
كأنما أصابني مس ؟ ...

على أني خلصت من هذا الاضطراب كله برأى حاسم ، لا  
متدح عنه ، هو أن أنشر القصيدة في إحدى الصحف السيارة ؛  
لتطلع عليها ذات اللثام ...

وهرعت من فوري أترك الدار ، فقصدت أستاذي في العربية  
إبان عهد الدراسة ، وكان قد انقطع عن التعليم ، وأقبل على  
الصحافة ، فأنشأ له مجلة ، فرجوته أن ينشر لي تلك الايات ،  
وظفقت أنشده إياها في حمية واندفاع . فتناول الورقة مني ،  
وسكن من روعي ، ووعدني بنشر الايات في مجلته « النجم » .  
وصدقني الأستاذ وعده ؛ فقد اكتحلت عيني برأى الايات  
في المجلة بعد قليل ، فعجلت بنسخة من المجلة إلى البيت ، وانفردت  
بها في غرفتي ، وانطلقت أقرأ القصيدة جهر الصوت ، كأنني ألقها  
بين يدي « ذات اللثام » ...

ووجدتني أتهالك على مقعدى أقلب الفكر : أتقع عينها على

— ١٢٣ —

المجلة فنقرأ الآيات ؟ ماذا يكون وقعها من نفسها ؟ ...

وانتظمتنى سنة من نوم ، وسرعان ما طالعنى المحيا الصبيح  
خلف لثامه ، وهو على حاله من التخفى ، لا أتبين من قسياته شيئا ،  
ولكنه كان باهر السنا... وشعرت أن ابتسامة رف على شفثيه ،  
وكأنه يعرب لى عن غبطة ورضا ...

قضيت يومين وأنا فى شبه حمى ، وفى صبيحة اليوم الثالث  
وقع ببصرى — أول ما وقع — على رسالة ، قدفت لى من عقب  
الباب ... إلى هذه الرسالة حقا ؟ ... وعن وليس لى بأحد  
صلة ؟ ... من فى الدنيا يأبه لوجودى ؟ ... ومن فى الدنيا  
يعرف لى مكان وجود ؟ ...

ثمة شخص واحد ، كائن مستور ، هو الذى يتصل بى ،  
ويعنى بأمرى ...

ورحت أقلب الرسالة بين يدى ، ثم اثنتيت أفضر غلافها مرعش  
البنان ...

ما كذبنى ظنى ...

وقرات :

« سيدى

هزرت نياط قلبى برائع قصيدك ، فى كل لفظة من أبياتك

حلجة من خلجات النفس ، تضطرم وتوهج ، وماهذه القصيدة  
إلا لحن شائق يسمو بالمشاعر في علوى الآفاق ... وإني لأقرأوها  
وأقرأوها ، فكلما لججى التكرار تجأت لى معان مشرقة ، مختلف  
ألوانها : كما تتضوأ الجوهرة تحت الشعاع مختلفة الألوان . تلك  
كلمات أخطأ إليك ، ما أغناك عنها ، ولكننى لم أستطع كتمانها ،  
فأنا أبلغها إليك على استحياء ، مشفوعة بتحايا الإعجاب والإعزاز  
ذات اللثام ..

رفعت عيني عن الرسالة ، محذقا فى عرض الغرفة ...

لقد وقعت المعجزة ...

ليست الحياة عقيما لا تتمخض عن معجزات ...

لا مستحيل فى الوجود ...

ما قد نظنه عصيا أو ممتنعا أو محالا ، يمكن أن يوجد ميسورا

إذا لامته ملايساته ، وواتاه إتيانه ...

طال تردادى النظر فى الرسالة ، أقرأوها مبدئا ومعيدا ، وأجهر

بقراءتها مرة ، وأخافت بها أخرى ...

وتسربت فى شعاب نفسى غبطة وراحة : كما فى كنت فى سفينة

تمايها غوارب الموج ، وتلعب بها نكباء الرياح ، ثم أسلنى سعد

الحظ إلى شاطئ سلامة وأمان ...

قلت لنفسى :

وأفالك اليوم بأنفس من يرعاك ، ومن يقاسمك شعورك وهراك ،  
فطبيبي ثم طبيبي ، وتملى بهجة الحياة ...

وخرجت من فورى إلى إحدى الرياض ، وقضيت وقتى  
أتطلع حولى فى مراح ، ووجدتنى أنظم أياتنا أخرى ، جعلتها  
جواب الرسالة ، وأودعتها عاطفة جياشة وشكرا على حسن الصنيع ...

ومضيت بالقصيدة إلى أستاذى ، فتقبلها بقبول حسن ،  
واستبقانى عنده غير قليل من الوقت ، يسألنى ماشأنى ، ويتعرف  
خبرى . ثم ألقته يعرض على فى لهجة أب حذب أن أعمل فى  
مجلته ، لقاء مكافأة معينة . فما كان أسرع استجابتى ...

واضطلعت من فورى بما أسند إلى من عمل ، وقد أفعمت  
نفسى حيوية وحمية ... واستمر عملى فى المجلة ، يزداد نشاطى يوما  
بعد يوم ، ويقوى حرصى على أن أبلغ رضا أستاذى الذى أهلى  
لذلك العمل الكريم ...

ولا حظت أنى أنام نوما لا يعكر صفوه معكر ، وأخذت أعنى  
بخاصة شأنى ، وأحسست بأنى أقبل على الطعام فى شهية ، وأتألق  
شيئاً فى ملبسى وزيتنى ؛ وكلما سرت فى الطريق تمثل لى وجه  
يقبى من وراء حجاب ...

توايت بنفسى الإشراف على نشر القصيدة الثانية ، فابتهجت  
بظهورها فى المجلة ابتهاجى بأختها من قبل ، وقصيت فترة من وقى  
مهتاجا أفكر فى شىء ذى بال ...

ومضى يومان يزداد بى الاضطراب ، أترقب شيئاً يحدث ،  
وأخشى أن يطول ترقبى ...

استبد بى القلق . فسهرت ليلتى الثالثة نافر الجفن ، ثأر  
الأعصاب . وتهيت الانهزام ، وأحسست أن قصور الأمانى  
ترنخ تحت العواطف الثقال ...

وظللت ساهدا حتى ساعة السحر ، ثم انكفأت على مرقدى ،  
فتملكنى نوم لم أصح منه إلا قبيل الظهر . فما إن استيقظت حتى  
وجدتنى أدلى بنظرأتى إلى عقب الباب ، فلمحت الرسالة ، وسرعان  
ماقفزت إليها قفزة الصديان ، حرقة الظمأ ، فى هجير فلاة ، فإذا  
ينبوع ينبجس منه ماء نير !

كانت الرسالة تحية رقيقة من صاحبتى « ذات اللثام » ... تحية  
عاطفية ختمتها بقولها :

« ما أعجبه قدرًا ذلك الذى جمع بيننا ، وهياً لنا فرصة اللقاء  
فى طريق الحياة على هذا النحو ... وها نحن أولاء نلتقى دون أن  
يرى أحدهنا صاحبه ، ولكن أى جدوى لرأى العين ؟ ألا تحس

— ١٢٧ —

أنا تترامى وتتناجى على وضع أصدق وأعمق من وقوع بصر على  
بصر ، ومن حديث فم إلى فم ؟ ... ثق أنى لك صديقة وفية ،  
يملاً إجماني بك أقطار نفسى جميعا ... ،

طويت الرسالة ، وأنا أهمهم :

أصديقة هي فقط ؟ ... إنها لتعلو على مراتب الصداقة  
والآلفة ، وما فى معجاناتنا من كلمات دنيوية تقاس بها  
الاعتبارات ...

ليس ثمة من كلمة تكشف معنى تلك الصلة الرفيعة التى تربط  
بينى وبينها ! ...

سيدتى :

إلى لأعرض لك اليوم فى كتابى هذا تلك المشاهد السحيقة  
من ماضى " القصى " ... فأذنى لى أن أسألك الساعة :

ماذا كان موقفك أنت من تلك الأحداث ؟ ...

أذكرين تلك الشؤون ، التى كنت أشاركك فيها الحياة  
والنجوى ؟ ...

أذكرين زوراتك لى ، أو بالحرى : إمام طيفك بى ، أو على  
وجه أصح : تخايل وجهك خلف اللثام ، يبعث إلى من ومض  
عينك سنا يضىء لى ظلماء الحياة ، ويوقظ أوصالى مما يستبد

بها من سبات وخمول ؟ ...

لقد سايرتني شو ظا ليس بالقصير ؛ فهل كنتِ على يَينةٍ بما كان  
يتنابنى من تأثر وتطور وانسياق ؟ ... وهل ظللت على مراقبة من  
خطاى فى هذه السبيل ؟ ...

وذلك التراخى الذى جد فيما كان بينى وبينك من علاقة ، وهذا  
الاقتراق الذى كان من أثره أن انقطع ما كان بينى وبينك من تراسل ،  
هل توضح لك من أسباب هذا وذلك شئ ؟ ...

أما أنا فـأجهلتى بتلك الأسباب ، وما أعجزنى عن إدراك  
كنهها ... !

لقد ترامى عنى ذلك العهد ، فلم أعد أذكر دقائق تلك المغامرة  
الحافلة التى كنت أنت دعامها المتين ... !  
أنسى ولا أنسى معالم بارزة الأثر فى تلك المغامرة ... ومن أين  
لى نسيان أنى أحبتك يا سيدتى ؟ ...

لوام أن أسوق إليك هذا الاعتراف اليوم ، فى غير مسطرة  
ولا جهود ...

لقد أحبتك حبا غريبا ، تشعب فى أنحاء الضلوع ، فكنت  
مشوقا مائة الشوق إلى أن أراك ، أقصد أن أرى وجهك المتخفى  
خلف لثامه ...

— ١٢٩ —

ولكن أى حب هذا ؟ ...

أطيف أحبه ؟ ...

أخيل أتعشقه ؟ ...

أحلم أوله به ؟ ...

لأكن لآلى بالآ إلى شىء من هذا كله ، فأنا فى شغل بما  
ينتظمنى من غبطة وانسراح . وكان مما يزيدنى اغتباطا وازدهاء ، أنى  
أحس مبادلتك إياى هذا الشعور ، وإن لم تصارجينى به جرة ا...  
لأنه لمن العجب العجائب ياسيدتى ، أنا كلينا بقينا لا يظفر أحدنا  
بأكثر من ذلك التواصل الروحى ، ولا يسعى فى دنيا الحقائق إلى  
تعارف وتلاق ا...!

فنع كلانا بذلك البريد الذى لم يكن يتعدى المناجاة ، وبذلك  
اللقاء الذى لم يكن إلا نجلى طيف ا...!

ولا أكنم عنك ماهجس بخاطرى ذات يوم ، إذ رحت  
أسائل نفسى :

لم لا أطلب لقاءك ؟ ...

لم أحرم نفسى رؤية س أحب ، سافرة قد انحسر عن محياها  
اللاثام ؟ ..

لم لا أراك كما أنت ، فأتعرف شارتك ، وأبين قسما لك ؟ ..

— ١٣٠ —

لماذا أراك حقيقة ماثلة تنبض بالحياة ، لا خيالاً مغلفاً وراء  
سئار ؟ ...

وما كادت هذه الخواطر تمنلج في رأسي ، حتى احسست  
انفجاسة خشية وتهيب ، لا أعرف لها مآتي  
ممّ خوفي ؟ ...

وفيم خشيتي ؟ ...  
وبنيت عزمي على ألا آذن لهذه الخواطر في أن تساورني  
كرة أخرى ...

حسبي هذا التوفيق ، الذي أتقياً منعه ، ولا تجنب ذلك المجهول  
الذي لا أدري ماذا يجبّوه لي من طواريء الشكوك والرّيب ...  
سيدق :

إني باسط لك الآن ، من أحداث حياتي ، أطرافاً شتى ، وسواء  
على أكنت بها عليم ، أم كنت لا علم لك بها من قبل ؟ . .  
هي قوة تستفزني أن أكشف لك عن طوايا تلك الحقبة  
العجيبة من ماضى ...

منذ زاولت عملي في مجلة «النجم» ودرّ على الرزق والكسب ،  
شرعت أحياء حياة غير التي كنت أحياءها ، واستطعت أن ألمّ من  
شعني ، وأرتب عيشي . فأصبحت في زيتي وفي مأكلي ومشربي ،

على نحو جديد ...

وجدير بمن يحب حسناء رفيعة الشأن ، أن يكون ذا روثق

ورؤاء ...

ووجدتني أحفل بالزهر أنتقيه ، وأعد له الأصص ... وكنت

كلما وقفت أجتلي الزهر تتفتح أكمامه ، أراني بك موصول الفكر ١ .

ودام تواصلنا على ذلك الوضع المعروف : قصائد أنشرها في

المجلة ، وردود منك تصل إلى في البريد ، وهاتيك الزورات اللطاف

يوافيني بها طيفك بين آن وأن ...

وترادفت الأيام ، وأنا في بحبوحة هذه السعادة ، وازداد في العمل

نشاطي ، ورأى أستاذي أن يكلل إلى في المجلة جساما من المهمات ،

فاضطلعت بها على خير وجه ...

وزيدا جرى ، وانتقلت إلى مسكن آخر أرقى وأكمل معدات ...

وكانت فيه شرفة لم تلبث أن حليت بالرياحين ، حتى غدت روضة

صغيرة ، تضوأت ربّاهما . فكنت أتخذ مجلسي عندها ، أنشد شعري

محيا قننتك ونضرتك التي تمثلها نظرة هذه الأزاهير ١ .

وعلى مر الأيام . تكاثرت عملي في المجلة . وتشبكت ، ووجدتني

أخيرا مسئولاً عن شئون الإدارة مشرفاً على تدبير المطبعة التي

اشتراها أستاذي . ليطلع فيها مجلته ، وليجعل منها مورداً لكسب

جديد ، فاستغرق العمل في المطبعة أكثر وقتي ، إذ انهالت علينا  
المجلات والكتب والأوراق التجارية ، حتى صار طبع مجلة أستاذي  
جزءاً قليلاً ، بالقياس إلى غيرها من المطبوعات ...

واستشعرتُ لذة في متابعة العمل وإحكامه ، وبذلت قصارى  
الجدد في خدمة أستاذي ، حتى غدوت ساعده الأيمن ، ومضيت  
فيما بين يديّ ، أستمريء النجاح والكسب ، فجددت من وسائل  
عيشي ، وبذلت من نظام حياتي ...

وتعاقبت الأيام شهوراً ، وأنا في لجنة العمل ...

فهل ظل تواصلنا على ما كان عليه ؟ ...

حقيق بي أن أعترف لك بأن ذلك التواصل قد اعترام  
تطور ... لم يتبدل جوهر العاطفة التي أكنها لك ، ولكنها اتخذت  
مظهراً جديداً قوامه الهدوء والاعتدال ...

كنا نراسل ، ولكن في فترات ليست بذات قرب ، كما كان  
الامر من قبل ...

وأصارحك بأني أجلت مناجاتك بقصيدي مرة بعد مرة ، مدفوعاً  
إلى ذلك بزحمة العمل ومواصلة المجهود ...

ثمّة تحوّل لاريب فيه ، اعتري ما بيننا من صلة وعاطفة ...  
لم يعد قصيدي يتنفس تلك الأنفاس المضربة . ولم تعد رسائلك تحلق

في تلك المطارح القصوى من آفاق الخيال ...

كانت عاطفتنا تنجيه رزية الخطأ إلى العقل والمنطق ، ومن  
عجب أن تجرى كلانا هذا المجرى دون أن ينكر على صاحبه شيئاً  
من أمره ؛ كأنما هو تحول طبيعي ، لا يحصى عنه لنا  
كلّيناً ...

وحدث أن ساوم بعض الناس أستاذي في مجلته ، فابتاعها  
منه ، وأصبحت صوتاً لحزب سياسي ، فاضطرنى ذلك أن أنخلي  
عنها ... وتباعدت الفترات بين تراسلنا معا ، وتسارعت بنا  
الخطأ نحو العقل والمطلق والاتزان ...

والقيتني في المطبعة أنهض بكل شيء ... وأجرّل أستاذي لي  
الآجر ، ووثق بي أعظم الوثوق ، وقويت تبعاني في العمل ؛  
فقدرتها خير تقدير ، وتلمب نشاطي ، وازداد دخلي ، وارتفعت  
بي الحال درجات فوق درجات ...

وكنت ما زلت معنيّاً في شقة مسكني بتلك الأصص المزهرة ،  
ولكنني لا أنكر أن كثيراً ما أعجلتني مواعيد الأعمال في المطبعة ،  
عن سقيا هذه الروضة الصغيرة وتعهدها ، وكثيراً ما ألهيت عن  
الاستمتاع بتلك الجلسات التي كنت أقضيها في صحبة الأزهير ...  
فسرعان ما أخذت تضمحل ويدبّ إليها الذبول والتصويح ...

ولم أكن قد بارحت « القاهرة » خلال تلك المدة التي سلخت  
بها أيامين اثنين ...

« بهبت ريح المصيف، وشدّ أستاذى رحاله إلى « رأس البر » مع  
أسرته ؛ إذ استأجر عشياً يمضى فيه شهراً وبعد شهر ...  
ومكثت أنا في « القاهرة » يستأثر بي العمل ...

ويوما تلقيت دعوة من أستاذى أن أوافيه في « رأس البر »،  
أقضى هنالك معه بضعة أيام للترويح والاستجمام ... فابتهجت بهذه  
الدعوة، وسارعت إلى تلبيتها ، وما هي إلا أن حزمت الحقيبة ،  
وحشت الخطو ، وحللت مثابة أستاذى في ذلك المصيف ...

وبدأت أستمى حياة طيبة ، في صحبة تلك الأسرة الكريمة  
التي تتألف من أستاذى وزوجه وابنتهما ، في زهرة العمر ...  
ومر أسبوعان ، وأنا هانىء بتلك الصحبة ، قلما نفترق ، نتحلق  
حول مائدة الطعام ، ونخرج رفقة للنزهة على الشاطئ ، ونسمر  
جميعاً هزيعاً من الليل ...

وكنّت أحسن في معاملة هذه الأسرة لى روحاً من العطف  
والحنو ؛ كأتى ابن بار لهذين الأبوين الشقيقين ، وأخ عطوف  
لتلك الأخت المهذبة السمائل ...

وظللت أعدد نفسي ذلك الأخ العطوف لها ، أرفعها رعاية

— ١٣٥ —

الإخاء المحض، ولكن عاطفة الأخوة لم تلبث أن نمت وترعرعت،  
حتى تبدلت خلقاً آخر ...

كان أول لقاء بيننا يوم هبطت العرش لقاء تمجيد وإكبار، ثم  
استحال اللقاء بيننا تعاطفاً وألفة، ثم تسامى ذلك التعاطف وتلك  
الألفة إلى شعور أرق وأرهف ...

وطالما أطلق لنا الأبوان السبيل، ننعم بمجسّات خالية صافية ...  
أفكان ذلك منهما وليد عمد وقصد؟ ... أم الملبسات هي التي  
هيأت لنا تلك الخلوات؟ ...

وعلى أية حال، فقد خلوت إليها، وخلت إلى. وتعرفت  
فيها سماحة نفس، ودماثة طبع، ونقاء روح، إلى خفر وحياء  
أصيلين ...

وكان انظراتها إلىّ تعبير صامت عميق الأثر، فكثيراً ما  
أشعرتني أنها معنية بي، آتية إلىّ ...

ومن العجيب أنني حين كنت أنفرد في مضجعي، ويرتق في  
عينني الوسن، ألمح طيفك - ياسيدي - يترأى لي وأنت على حالك دائماً  
يحجيك اللثام، ولكن هذا اللثام كانت ترق غلاته فيشف عما  
تحتّه من ملامح وقسمات ...

وما أعجب ما كنت أرى ...

كنت أشهد في وجهك سمات من تلك الصديقة الجديدة بذت  
تساذي . لون عينيها العسلي ، إشراق ابتسامها الخلو ، نضارة بشرتها  
البارقية ، تلك الغدائر التي كانت تنساب على منكبيها فاحمة موجهة ...  
ما أنجحه حداثاً لا أمالك له من تعليل !

كنت أنت دائماً تترامى لي في صورة صديقتي الجديدة ...  
وقد رمى ذلك بي في حيرة ممضنة ...

أ كنت بهذا الصنيع تسخرين مني ؟  
أم كنت تلوميني ، على ما كان مني نحو هذه الصديقة ، من  
عطف وتودد ؟ ...

وإنني على الرغم من هذه الملاح الجديدة التي كنت ألحظها في  
طيفك ، لم أكن أعتقد في دخيلة نفسي إلا أنك أنت أنت ، روح  
واحدة ، وإن تغيرت الملاح ، وتبدلت القسمات ...  
ولكن أية ملاح أعني ؟ ...

لم أكن فيها سلف من أيامي أجتلي لك ملاح أوقسمات تعين  
على التمييز والإيضاح ، فقد كنت دائماً في خفية وراء حجاب  
الضباب ... أفكنت آتئذ على صورة واحدة لا تتغير ولا تتبدل ،  
أم كانت صورتك تتغير وتتبدل خلف لثامك ، حتى انكشفت لي في  
تلك الصورة الأخيرة التي أشبهت فيها صديقة المصيف ؟ ...

سيدتي :

إن الحيرة تغتالني فلم آثرت ألا أنسفرى لى عن محبتك فى  
وضوح النهار ، وتكشفى لى عن حقيقة شخصك ، وتحسدنى فى  
شأنك ؟ ... لم ألقيت بى فى متهاتات الظن والتخمين ، يلبس على  
فيها الماء بالسراب ؟ ... مهما يكن من أمر فقد أحسست فى  
تلك الفترة أن عاطفتى تتجدد لك ، وتنخذ لها هدفا ومرمى ...

إن حى ليزدهر ، ولكأن الفترة التى حسبها فترة تعقل واتزان  
لم تكن إلا فترة استجمام وتأهب للوثبة القمصى ...

فقلت إلى « القاهرة » وبين الضلوع نار وارية ، واستأنفت فى  
المطبعة على أنهض به فى حماسة ونشاط ، أحرص ما أكون على  
مرضاة أستاذى ، وولى نعمتى ! ...

وإنى واثق أن ترسلنا قد انقطع هذه الفترة ، ولكننى كنت  
دائب التفكير فىك ، وكثيرا ما كنت تزورنى طيفا كشأنك ،  
ولكنه طيف تتجلى فيه ملامح صديقتى فى عيش المصيف ! ...

وأقبلت على روضة الشربة أرعى أزاهيرها ، وأجلس إليها  
أناجى حى الذى تنضرم ناره بين جنبى ! ...

ولكن أى حب هذا على وجه الدقة والتحقيق ؟ ...

أجى إياك أنت يا ذات اللثام ؟ أم حى لصديقتى الجديدة ؟

حسبي أنى كنت أناجى من يخفق لها قلبى ، وأنشد من تحنّ إلى  
لقائها نفسى ...

كنتُ فيما سلف قنوعا بذلك التواصل الروحى ، يلا سمعى  
نغما ، ويهر عيني ضوءا ، ولكنى لا أتبين له شخصا ...  
أما اليوم فما أنا بقانع ولا مكنتف بذلك العبق ، تهبّ على أنسامه  
من بعيد ...

ما أشوقنى الساعة إلى لذة الاقطاف ، ومتعة الاعتصار ...  
يا طالما تنيتك فى تلك الحقبة جسدا يحتويه ذراعى ، أستنشى  
منه عطر المرأة ، لا عطر الزهرة ، وأسمع منه صوت الإنسان ، لا الحن  
الاحلام ...

يا طالما تشبّيت أن تبسطى إلى كفك فى تلك الزورات الأخيرة ،  
كفك الرخصة البضة ، أبقها بين راحتي تبك فى الحرارة والانتعاش ،  
وأغنم منها قبلة حافلة أروى بها ظمأ الشفاء ، كتلك القبلة التى  
اغتنمتها منك ليلة الوداع لعش المصيف ...  
أذاكرة أنت ؟ ...

كنا على الشاطئ نتنزه ، والليل ساج ، والنسيم خفاق ، وبيننا  
حديث وشجون ... وأيقنا أخيرا أن التحدث لغو ، فقطعناه  
بالصمت ، وأغنمنا لغة العيون تتناجى بها قرة ، وإذا أنا آخذ

بيدك ألا طمعا ، وأودعها قبلة عميقة حرى . . . .  
 لقد عاد أستاذى من مصيفه فى رأس البر ، وشمرت به يندق  
 عطفه على ، عطف الأب على ابنه الأعز ، ورأته يكاشفى بالدقائق من  
 أحواله وأسراره . وكثيرا مادعانى إلى تناول الغداء أو العشاء فى بيته  
 بين أسرته ، فلبيت الدعوة تواقا سباقا ، مثلوج الفؤاد .  
 وأكبر يقينى أننا لم نستأنف تراسلنا ، وما حاجتنا إلى الرسائل ،  
 وقد تلاقينا بعد طول تجوال ؟ . . .  
 لا مرية أن جيدين تلاقيا ، ولكن ألفت فتاة . أخرى غيرك  
 هى « فتاة المصيف » ؟ أم لقيتك أنت « ذات اللثام » ؟ . . .  
 لقد ربطت الزواج بينى وبينت أستاذى « فتاة المصيف » ،  
 وعشت معها الأعوام الطوال ، حتى قضت منذ عهد قريب . . .  
 وأعجب ما كان منى أنى كنت كلما هممت أن أستوضح منها شيئا  
 يكشف لى ذلك السر الغامض ، سر العلاقة بين « فتاة المصيف »  
 و « ذات اللثام » ، وجدت كلما فى قد استحالت بسمات هادئة ، تستجيب  
 لها صاحبتي بالابتسام . . . فهل كنا نتكاشف بتلك البسمات الخفيفة  
 الغامضة ، ونستجلى دقائق القلوب ؟ . . .

سيدنى :

إليك قصتى ، رويتها لك جلية صادقة ، رويتها لك يا « ذات

— ١٤٠ —

الثام :؛ لكي أقتبس منك نورا يكشف لي ظلمات الحيرة والظن  
والإيهام ...

ولا إخالك مجيبي إلا بقولك :

« دع عنك كل شيء ، وحسبك ما بلغت في حياتك من آرب ،  
فقد خرجت من حال إلى حال ، وبدلت باللبوس نعمي ، وبالشفاه  
هناة ، وبالحول همة ومضاء ، فإذا أنت مرید فوق ما بلغت ؟ ...  
فلا عليك أن يكون ما سلف من أحداث مغامرتك وهما أوحقيقة ،  
فليس الوهم أهون أثرا من الحقائق ، في توجيه العزائم ، وتقدير  
المصائر ، وإصابة الأهداف ...

إن لم يكن لك يا سيدتي من جواب غير هذا الجواب ، فإنه  
عندي فصل الخطاب ... وعليك سلام ! ...

## الشيطان يلهو! ...

زعموا أن شيخ الشياطين لما حضرته الوفاة ، استدعى ولي عهده « بلزبول » ، فلما قدم عليه ألقاه على فراشه المصنوع من الحسك ، فجثا على قدميه ، وأطرق حزينا ، وأحس شيخ الشياطين حضور خليفته ، فرفع رأسه في جهد وقال :

« أصغ إلى يابني ... لقد تأثرت آلاف السنين على مملكتي ، فلم آل جهدا في العمل . وفق قوانينا الحكيمة ، ولم أقصر لحظة في خدمة مبادئنا ، ونشرها نشرًا موفقا ، في أرجاء العالم .

فقال « بلزبول » ، في إخلاص وحرارة ، وهو على حاله ، خافض الرأس :

هذا حق يا مولاي ...

وتابع شيخ الشياطين قوله وهو يتنهد :

ولكني يابني — بالرغم من كل هذا — أجدني غير راض عما فعلته . .

فرفع « بلزبول » الشاب رأسه المسنون ، وحدث في وجهه

الزعيم المحتضر ، والدهشة تتنازع ، وقال :

— ١٤٢ —

مولاي...! لم يسبقك في الحكم زعيم أتى ما أتيت به... إن  
ملكنا — بفضل عزمك — قد نالت من الشهرة المدوية والسودد  
والرفعة؛ ما لم تنله في أى عهد آخر من عهودها السابقة...  
وتقلب شيخ الشياطين على فراشه، فظهر من تحت الغطاء  
حافراه المشققان، وقال في صوت أبج:  
هذا حق، من حيث قيامى بالواجب، نحو عشيرتنا ومبادتنا،  
ولكنى أقصد واجبى نحو نفسى...

فاهتز دبلزعبول، وقال:

. أفصح يا مولاي...!

فاستطالت عينا الزعيم، وارتفعتا حتى قاربتا قرنيه، وقال:  
إن قباخى ياغواء الأدميين، والتغريبهم — كما هو مفروض  
في دستورنا الأعظم — أمرهين ميسور...! وقد ساعدنى على  
إنجازه ما انطوت عليه سريرة الإنسان، من حسن استعداد  
لقبول بذرة الفساد...، فإذا فعلت لأنال كل هذا الفخر...!  
— مولاي...!

— اسمع يا دبلزعبول... لو لم نجد من الإنسان نفسه كما  
سوته يئسته عوناً لنا على نشر غوايتنا، لما استطعنا أن نفعل  
شئنا...

— ١٤٣ —

... سيدى الزعيم ...

— اعترف معى ولا تكبر ... ماذا ترك لنا الادميون من  
نشر ... لقد تغالوا يابنى فى مقدرتنا على إفساد العالم ، ونحن  
اثنان لاثالث معنا ، فلتكلم فى صراحة ، ولنعرض أعمالنا مع  
البشر ... ماذا نقول فى هذه الآثام والشرور التى تموج بها النفس  
البشرية ، أهي كلها منا ؟ ... تكلم ...

— كلا أيها الزعيم ...

— إن الإنسان ليفعل الشر مطئنا ، ثم لا يلبث أن ينحى علينا  
باللائمة ، فينفض عنه التبعة ، ويحملنا الوزر كله .. هذه هي الحقيقة  
الزمت أن أجاهرك بها ، لتجلو الغشاوة عن عينيك ...

وضعف صوت الزعيم وغار شدقاه ، وأخذت لحيته الزرقاء  
تُرد على صدره . فبادر بلزعبول ، لشاب ، وتناول قارورة يندلع  
منها لهيب قان ، وأفرغ ما فيها فى فم الشيخ ، فسرعان ما اختلجت  
حدقتا عينيه ، واتفخ وريدها ، ثم سمع يقول :

شكرا يابنى ... فإن أُرغب فى إتمام حديثى إليك ...

— لانتى مصغ لك أيها الزعيم ...

— سيثول إليك يا بلزعبول ، بعد حين ، أمر هذه المملكة

— ١٤٤ —

الضخمة ، فماذا أعددت لها من مناهج وأساليب ؟ ... لا تقل  
إنك ستأثر خطاي ... لقد أوضحت لك أني لم أفعل شيئا جديرا  
بالفخر ... ١

— وماذا تريدني أن أفعل ؟ ...

— افتح فتحا جديدا ، وشق أقفا بكرة ... ١

— مولاي ١٢ ...

— إيت بمعجزة ، تثبت لهم أننا أهل لغير الشر ... ١

وهنا بدأ جثمان الزعيم يحترق ويدار ويذا ، وينبعث منه دخان  
أزرق ، فسجد « بلزبول » ، في خشوع ، والدخان حوله يتعالى  
ويتكاثف ، حتى أصبح المكان معنما كقاع الجحيم ... ومالبث  
أن سمع انفجار قوى ، فرفع « بلزبول » رأسه فوجد جثة الشيخ  
قد اختفت ، ولم يبق منها أثر ... هنا صاح صيحة عالية ، ينادى  
الخلصاء والأتباع .

وأقبلت الشياطين أفواجا تتزاحم على القاعة ، وقرونها المسنونة  
تتوهج ، أذناها الطويلة تضرب الأرض ضربا متواصلا ...  
واعتلى الزعيم الشاب منصة الخطابة ، ثم صاح : سكوتاً ...  
فبدأت الأذئاب وانكششت ، واستلانت القرون وتدلكت ، وقد  
خبا وهجها ، وخشعت الأصوات ، وأرهفت الأذان ... ١

— ١٤٥ —

وتكلم « بلزبول » وقد نبئت في لحظة على وجه الأمرد لحية  
الزعامة ، وقال :

يا معشر الشياطين الكرام ... لأننى أحمل لكم نحية زعيمنا  
الأكبر ، ووداعه الأخير ...

فاهتزت القاعة على الفور بتنهيدات ملتهبة ، وتبع « بلزبول »  
قوله : إنه حتى الساعة الأخيرة كان يفكر فى خيركم ، وحسن  
سمعتكم ، وقد أودع صدرى وصية خطيرة ، ألزمت نفسى تنفيذها  
على ضخامتها ، وعظم شأنها ... وسأجد معكم أيها الرفق خير عون  
وظهير ...

وتقدم « الأرقط » عميد المستشارين ، وقال :  
وهل لمولاي الزعيم أن يعرض ، على حصائه وأنصاره ، هذه  
الوصية الكبرى ؟ ...

— إنها تنلخص فى كلمتين ، ألقى بهما إلى زعيمنا الراحل ،  
قال : « افتح فتحا جديدا ، وشق أفقا بكرا ، وأت للناس » بمعجزة  
تثبت لهم أننا أهل لغير الشر ...

فاندلع اللهب من عيون الشياطين السنة طويلة ، وعلت  
همهمة تساؤل وتعجب ، ودنا « الأرقط » من الزعيم ، وقدر رفع  
هامته ، وقال :

ثمة حيدة عن سبيل السلف الطيب الذكر ؟ ...  
فتناول « بلز عبول » سوطا ناريا معلقا في الفضاء ، وشهره في  
وجه « الأرقط » ، وهو يقول :  
أئمة معارضة لباكورة أحكامي ؟ ...  
نفر عميد المستشارين خاشعا يستغفر ، وقال « بلز عبول » :  
إني أعرف صوالحك أكثر مما تعرفونها ، وسأعمل عل تنفيذ  
وصية مولاي الأكبر ، في صدق وإخلاص ... تفرقوا ...

\* \* \*

واحتبس « بلز عبول » في قاع الحب الأسود وقتنا طويلا ، وقد  
أمر ألا يقلقوه ، وأخذ يفكر في وصية الزعيم ، وكيف يستطيع أن  
يشق في حكمه أفقا بكرا ، ويأتي « للناس » بمعجزة ، تثبت أن  
« الشيطان » قادر على عمل شيء غير الشر . وجعل يقلب الأمور  
على شتى الوجوه ، ويباحث نفسه ويجادلها ، والأمل دائما يداعب قلبه .  
إنه لو وفق في مسعاه لأضاء اسمه في ملكة النار أبد الآبدين ! ...  
والتمتع عيناه بغتة ورقص قرناه وتعاثا ، ثم انطلق في لمح البصر  
الخاطف ، يشق حجب الظلام واللهب حتى دخل قاعته في دار  
الزعامة ، وصاح ينادى الخالص والاتباع ، فانطلق السقف ،  
وتصدعت الجدران ، وانشق أديم القاعة ، وتباثت الشياطين منها

ملبية النداء... واعتلى « بلزعبول » المنصة، ووجهه محوط بهالة  
أرجوانية، مبرقشة بنقط زاهية، وقال :

يا معشر الشياطين الكرام... لقد اهديت إلى فكرة  
أنفذ بها وصية زعيمنا الراحل، على خير وجه... إنها ستبلغنى  
ولياكم طريق المجد الأبدى...

وتقدم « الأرقط »، عميد المستشارين، يتسم في تلفظ،  
وهو يفرك يديه، وقال :

هل لمولاي أن يشرح لنا فكرته...؟  
— ستعرفونها في إبانها. والآن أخبركم بأنى فى حاجة إلى فئة  
من ذكوركم، وأخرى من إناثكم، يرحلون معى إلى الأرض...  
— إلى الأرض...!

— أجل يا « أرقط »، إلى الأرض... حيث أقوم بتجربتي  
العظيمة، معجزتى الطريقة التى سيهنز لها الثقلان...

وصاح « بلزعبول » مناديا :  
يا « زفاف »... يا « سرعرع »... يا « عتريس »...  
يا « خلوب »... يا « ياساية »...  
ولبت ينادى من وقع عليه اختياره، فاجتمع أمامه جمع من  
الشياطين، بين ذكور وإناث؛ شبان وشيب...

— ١٤٨ —

وما إن استتم عددهم ، حتى صالح بهم :  
اتبعوني ...

ونشر الزعيم جناحيه ، وانطلق شاقا سقفا القاعة ، وأنباعه  
الذين اختارهم في أثره ، يرفون بأجنحتهم ، فيسمع لها أزيز مخيف .  
وفي لحظة كان الزعيم وخلصاؤه على الأرض ، في بقعة يقال  
لها الوادى الأجذب ، وهى بقعة منسية لا يرتادها البشر لو عورة  
أرضها ، وندرة الخيرات فيها ، حتى الوحش لم يكن يقربها ...  
وأخذ بلزبول ، على الفور ينفذ خطته ، فطار على البقعة يحدها  
ويرسم معالم المسكان الذى يريد إنشاءه فيها . ولم تنقص لحظات ،  
حتى انقلب ذلك الوادى الأجذب ، بحيرة هادئة صافية الماء ،  
يتوسطها قصر من البلور ، مقام على عمد من المرمر ، محوط بيستان  
ظليل فواح ، وقد ضرب حول هذا القصر وبستانه نطاق من  
سحب مسحورة ، لم تدع له وجودا أمام أعين البشر ...  
وحط بلزبول ، على شاطئ البحيرة ، حيث ينتظره أعوانه  
مدهوشين ، وقال :

يا « خلوب » ...

فتقدمت منه شيطانة حيزبون معمرة ، لها أنياب زرق مهشمة ، تلتحفه  
بعباءتها الدكناء المرقعة ، وتحتذى خفها القاني الممزق ، فقال لها :

— ١٤٩ —

القد نادى رئيسه لهذا القصر ، فتمسكت به مع تواجد  
الإثبات ...

ثم أخذ يتفحصها برهة ، وبرقت على وجهه ابتسامة سائجة ،  
وقال :

ولكن يا «خلوب» ، أبست هذه الطلعة وهذه الملابس  
خليقة بمن اخترتها مريّة ، وفضل العذارى ، ...  
فهممت : «فضلى» العذارى ، ١٤

— نعم ، فضلى العذارى ، صنيعى ، معجزة العصر . .  
فتهاست الشياطين فيما بينها ، وسكت «بلزبول» ، وقتا ، وعيناه  
تتوقدان ، ثم نادى :  
يا «زفاف» ...

فظهر شيطان عشوق القد ، بوجه أمرد مستطيل ، فقال له  
«بلزبول» :

أما أنت ، فقد أفتك زعيمنا على الذكور من إخوانك ،  
وسيكون مقرم ضفاف البحيرة تحرسونها ، وتمنعون عنها الطارقين  
من بنى البشر ... لا يقرب القصر إنسان ...

— أمرك مطاع يا مولاي !  
وعقد «بلزبول» يديه على صدره ، وقال «لزفاف» :

— ١٥٠ —

لا أنسى يا «زقاق»، ما قمت به من عمل مجيد يوم أرسلك  
زعيمنا الراحل إلى الأرض على رأس بعثة الخريين ! ...  
فأبختني «زقاق»، في رشاقة، وقال :  
مولاي ! ...

فأحدث «بارعبول» بصره في الشيطان، وقال :  
ولكني لا أنسى كذلك، وقد تكلل مسعاك بالنجاح في سبيل  
نشر الخريين البشر، أنك عدت إلينا بقنينة من الشراب تخفيفاً تحت  
جناحك ! ...

فرفع «زقاق» رأسه، وقال في حرارة :  
لقد كانت توبتي صادقة أمام الزعيم الراحل، وحق أنفاسه الزكية !  
— إذن يمكنك الاعتماد عليك ... والآن فليأخذ كل منكم  
مكانه في هذه البقعة، ولينتظر في ! ...

وبسط زعيم الشياطين جناحيه، واختفى في لحظة البصر، وعاد  
بعد برهة يخفى تحت شملته شيئاً ملفوفاً، يردد الانفاس، فذهب به  
إلى القصر البلوري العالي، وألقى به بين يدي «خلوب»؛ وقال لها:  
لقد أنيتك «بفضلي العذاري» ! ...

— الأنسية هي يامولاي ! ؟

— نعم يا «خلوب»، ... أخذتها وقت مولدها من كوخ

أسرتها ... إنها تنتمي إلى طائفة الرعاة ...

— وتريد أن تجعل منها « فضلي العذاري » ١٤ ...

— لست أريدها « فضلي العذاري » فحسب ، بل أسمى مخلوق  
من البشر ، ستنشأ في هذا القصر ، وفق برنامج دقيق أعدته لها ...  
ستقومين أنت ورفاقتك بتنفيذه ... إنها وديعتي بين أيديكم ، ولن  
أعود لرؤيتها إلا حين ينضج شبابها ، ويكمل نهج روحها ، ولكنني  
سأشرف عليها عن بُعد ، سأكون رقيقاً عليكم جميعاً ؛ فأياكم  
والإهمال فيما أردتكم عليه ..

فابتسمت « خلوب » وكانت قد اتخذت لها هيئة مريية ، يترقب  
ماء البشر والطهر في وجهها الوسيم ، ثم قالت :

كن مطمئناً يا مولاي ، سنعمل على تنفيذ أوامرك ...  
ثم ابتسمت مرة أخرى ، وقد كشفت عن وجه الوليدة تأملها ،  
فاذا هي ساجدة في نوم هادي ، فقالت :

وإذا وُفقت في إرضائك ؟ ...

— سأقطعك الصحراوات السود ، وسأخزل زوابعها

الهوج ...

فانحنت « خلوب » حتى قارب رأسها حافري الزعيم ، وكلمات  
الشكر تتناثر بين شففتها ، ثم رفعت بصرها إليه ، وقالت وهي

-- ١٥٢ --

ما زالت محتضنة الطفلة :

إني مصغية لأوامر الزعيم ...

— سأحدث إليك برنامجي مفصلاً . أما الآن فحسبي أن أقول

لك : ستكون ربييتي و فضلي العذاري ، مثلاً كاملاً لأحسن

مخلوق ...

فحنت المربية هامتها برهة مفكرة ، ثم قالت :

ليس ثمة إلا طريق واحد ، علينا اتهاجه ...

فقهقه و بلزبول ، وقال :

أى طريق تزعمين ؟ ...

— أن نباعد بيننا وبين ما يسمونه الشر والالم ، كما هم معروفان

لدى الآدميين ...

فربت و بلزبول ، كتفها بأصابعه العاجية ، وقال :

عوفيت يا د كلوب ، ... إني فخور بك وبذكائك ...

ثم اعتدل في وقفته ، ونادى د زافا ، فلما مثل بين يديه . قال

له في حزم :

لا يقترب من هذه المنطقة بنو البشر . وخصوصاً الذكور منهم ...

أوعيت كلامي ؟ ...

— كن مطمئناً أيها الزعيم ...

— ١٥٣ —

ومرت الأعوام ، وكانت التقارير ترفع كل يوم إلى زعيم الشاطين  
« بلز عبول ، حافلة بأخبار ربييته ، فكان يبسطها أمامه مختبطا ،  
ويقول لرئيس مستشاريه ، الجالس على عتبة العرش :  
ماذا تقول في تجربتي هذه يا د أرقط ، ١٢ ...  
— خلق إنسانه لا تعرف الشر ولا الألم ، تحيا في هناء دائمة  
وطهر أصيل ... حقا ستكون معجزة الدهور ...  
— ومن ثم يمكنني أن أنشيء على غرارها عالما نموذجيا ، لم تحلم  
بوجوده البشرية ...  
وانطلق يضحك في نشوة ضحكا رددته جوانب البهو صخبا  
كعخب العواطف الثائرة ...

\*\*\*

أما هناك في القصر البلوري المحوط بالبستان الفواح ، المقام  
وسط البحيرة على أعمدة من مرمر ؛ فقد نشأت « أزاهير » ،  
ربيبة الزعيم ؛ نشأة لم يعرفها البشر ... حياتها ربيع دائم ، وطريق  
عمهد ميسور ... ويشتها جو رائق صاف ، لا أثر فيه للغمام ؛  
فمخايل الغبطة لا تتحرف لحظة عن وجهها ، والألم لم يعرف مرة  
وقعه في نفسها ... وكانت ترى إما غارقة بين وسائدها اللينة ، وسط  
البستان ؛ تصغى إلى موسيقى خفية ، ثم تسأل ، أزاهير ، نفسها لحظة

عن ذنوبها ومصدرها ... وإمام مشموله بوصيقاتها الجميلات في البرو  
العاجي ، يسامرنا بجديتهن المؤلف ، يسرن فيه على خطط مرسومة  
في حدود معينة ... وإمام مع مرييتها « خلوب » في القاعة الزمردية  
تصغى إلى درس الحكمة ، وآداب السلوك ، وأصول الاجتماع ؛  
وفق البرنامج الذي استنبطه « بلزبول » ...

فإذا ما أقبل سلطان الكرى ، يداعب في وداعة جفنها ، شعرت  
بأيد خفاف ، تحملها إلى مخدعها الوثير ؛ حيث تستقبل أحلامها  
المتشابهة ...

أما على ضفاف البحيرة ، فقد نشط زفاف ، وأعوانه للحراسة ؛  
فلم يدعوا أى مخلوق - إنسانا أو حيوانا - يدنو منها . واقتنع  
« الإنسان » بعد محاولات خائبة أن هذا المكان أصبح منطقة  
حراما ممنوعة عليه ؛ فكم من مرة جاءت جماعات الصيادين تطلب  
رزقها في هذه البحيرة العجيبة ، التي لم يكن لها وجود من قبل ، فلما  
إن قاربها حتى قامت في وجهها الأعاصير العاتية تصدها وتشتتها ...  
ولن ينسى الفرسان أنهم كلما جاءوا يرغبون في ارتياح أطعمها ، فيعضون  
يها أياما في هووم وانسة - لا قوامن الشر والعناء مالم يكن في حسيان ؛  
لذا خرجت لهم من الماء طوائف من حيوانات مجبولة ، لم تقع عين  
إنسان على مثيلاتها بشاعة وقسوة ، وراحت تضرب فيهم بقرونها

الحداد، وتطيل عذابهم بما تلقوه عليهم من مُحنةٍ ولُيبٍ.. وكذلك ظل أمر هذا القصر وساكنيه سراخضيا مدفونا في قلب هذا الوادي القصي. وانقطع الناس، عن ارتياد البقعة، ولكن عقولهم لم تنقطع عن الكشف والاستطلاع، فانطلق خيالهم بختراع وينمق، وترامت الإشاعات في كل ناحية وصوب أن بحيرة مسجورة نشأت في الوادي المنسيّ، تسكن ضفافها الشياطين، وتخفي في أعماقها كنزا عظيما، هو كنز الخلود، من كشفه فقد عرف سر الحياة، فاستعصى على الموت، وعاش أبد الدهر...

وانتهت قصة البحيرة وكنزها إلى آذان الأمير زبرجد، فأنصت لها لاهيا بادي ذي بده، ثم لم يلبث أن ألفاها تستبد بمشاعره. والأمير زبرجد، شاب وثاب المطامع، جرى يهوى المخاطر، شغف بالفلسفة حينئذ، فلما أحاط بدقائقها انتقل إلى الغمروسية، فبز فيها أعلامها، ثم انساق بعد ذلك إلى مجالى الشراب والنساء، فعب منها ماشاء أن يعب. وأخيرا برّم بهذا كله، وأحس الملل يشيع في حياته، ونشئت وطأته عليه. فوجد في قصة هذا الكنز العجيب أكبر حافز له على النشاط والعمل على تبديد ضجره وكان ذكي الفؤاد، فأدرك أن القوة وحدها لن تلبه أمنيته، فلا بد له من اصطناع الخدعة والمكر، والاختذبا سالب خفية من السحر،

تتمدد على الفور إلى « نيتى » عميدة الساحرات ! ... وكانت تسكن  
 في الجبل الأزرق ، في كهفها المنحور في الصخر ، لا يعيش معها  
 إلا بومة عمود - تلقى إليها بالوحى ، وقد مهدل الأشداق يقوم  
 على خدمتها . فتمزج إلى السحرة بمنحة عظيمة القدر ، ورغب إليها  
 أن تفقه في علوم الشياطين ، فقادته إلى « سرداب الحكمة »  
 وهو حنية في قاع بئر عميقة ، تحوى جميع ما استغلق على البشر من  
 فنون الشياطين وأسرارهم . ... ومكث الأمير أعواما يدرس من  
 غير كلال ، حتى استوعب موضوعه ، فخرج إلى النور شاحب  
 الوجه ، غار العينين ، ولكن قلبه عابر فياض ..

ذهب الأمير إلى منطقة البحيرة مستخفيا يستطلع ، واستطاع  
 أن يدنو من المغارة الكبرى ، حيث يجتمع زفاف ، برفاقه ،  
 يرسمون الخططمة ويسمرون أخرى ... وأنصت الأمير طويلا ،  
 فسمع أشنانا من حديث منهم عن قصر عظيم ، وأميرة مُسَمَّاة ، وشخصية  
 عظيمة تدعى « لزعبول » . ولما انفرد « زفاف » بصفه « سرعرع » ،  
 استطاع الأمير « زبرجد » وهو في مخبئه أن يكشف من ثيابا  
 حديثهما سرا خطيرا ، هو أن « زفافا » يحبس في قلبه ميلا شديدا  
 إلى الخمر التي يصنعها البشر ، وأنه يحن إلى معاقرتها في تشوق ! ...  
 وفي الليلة التالية ، بينما كان « زفاف » في خلوته ، مع أمينه

— ١٥٧ —

« سرع رع » ، إذ سمع لفظا وهرجا غير مألوفين ، تبين فيهما صوت استغاثة . ولم يلبث أن رأى رهطا من الشياطين الموكول إليهم الحراسة ، يدخلون وهم قابضون على شيطان أجنبي زرى الهيئة ، يحمل وجهه صعلوك شريد . . . فلما مثلوا بين يدي زعيمهم ، قال رئيس الحراس :

مولاي . . . وجدنا هذا الغريب يحول غير مبال في منطقة نفوذكم السامى ، فأتينا به ، لتروا رأيكم فيه . . . فاضطجع « زفاف » على أريكته ، وقال للغريب ، وهويتفحصه في تأقف :

من تسكون ؟ . . .

— خادمكم « طغيان » ، من عشيرة « الفتاكين » ، البواسل . . . فقال « زفاف » :

إنها لسبة لاتمحى أن تنسب لهذه العشيرة المجيدة . . . ورأس « بلز عبول » ، إنك لدعى كاذب ، وسوف أقتص منك أشد قصاص فرع « طغيان » ، وهو يرعد ، وقال :

لاتحكم على يا مولاي قبل أن تسمع قصتى . . .

— تكلم . . .

— لقد كنت من أشرف العشيرة ، قبل أن يحكموا على بالنفى . . .

.. ولماذا تفوك ؟ ...

... لأننى ذقت خمر البشر ، وأصبحت بعدئذ مسكّيرا ...  
فأصابني د زفافا ، هزة ، وصمت برهة ، وهو يقاب بصره في  
طغيان ، ثم صاح فجأة :  
هذا جرم كبير ، وإنك لتسحق عليه الحبس أبد الدهر في قفم  
ملقى في أعماق البحار ...  
والتفت إلى الحراس ، وقال :  
أنفذوا فيه عقوبتى ...

وتكاثّر الحراس على طغيان ، يريدون القبض عليه ، فحاول  
الإفلات منهم ، فزلت به القدم فوق ، وسقطت منه قبينة خمر  
معتقة يخفيها تحت ثملته ... وفاحت رائحة الخمر ، فعمت المكان  
بأسره ... وأخذ د زفاف ، يتقلب على أريكته تقلب المحموم ! ...  
وما لبث أن صاح :

دعوه لى سأقتص منه بنفسى ! ... خروجا ...  
وخرج الجمع ، وبقي د طغيان ، منفردا مع الرئيس ! ...

\* \* \*

وتقصّت أيام ... ولوحظ على د زفاف ، أنه يبادر إلى الخلوة  
« بسر عرع » كل ليلة ، متبر ما يجدث الرفاق الآخرين ، وشوهدت بعض

قنينات فارغة متناثرة ، غير بعيدة من مغارة الرئيس ، فأخذ الأعوان يتهايمسون ، ولكنهم لم يجرؤوا على فعل شيء ، ثم هزوا أكتافهم في غير اهتمام ، وراحوا يتسعون ...

في إحدى الليالي خرج « طغيان » من المغارة ، بعد أن ترك الرئيس و صفيه ملقيين على فراشهما ، يغطان غطيًا منكرا ، ويجوارهما قنينة فارغة ... خرج « طغيان » وهو يخفى تحت إبطه الخف السحري ، ويحمل في صدره كيسا فيه قبضة من مسحوق النوم ، واتجه على التو صوب البحيرة فألقى الحراس كسالى يتنادرون ، فرشاً في الفضاء جانبا من المسحوق ، فإلبثوا أن طوام سبات عميق . وامتطى الخف السحري ، وانطلق يجري على متن البحيرة يسابق الريح . وكان يبسم فخورا ، وقد استطاع أن يكشف من « زفاف » سر القصر و ربييته ، وأدرك حقيقة الأمر في قصة « كنز الحياة والخلود » ...

واخترق منطقة السحب ، وكانت تحيط بالقصر من كل ناحية ؛ كما يحيط قشر البيضة بالفرخ الجنين ، فبان له على ضوء القمر الرائق بناء شامخ ، ملاءه من روعة وسحر ... ولكنه لم يضع وقته في التأمل ، بل تابع ازلاقه على الماء ، حتى دنا من الباب المقفل ، فلم يتمهل أمامه ، بل مرق منه مروق السر في الآذان المرهفة ، وذهب على الفور إلى

انردهة ثلثى تنام فيها د خلوب ، وأعوانها ، فألقى فيها بشيء من مسحوق النوم . ومن ثمَّ خرج ، واعتدل في وقفته ، ثم انتفض انتفاضة ، فإذا بالصلوك الرث الهيشة فارس رشيق ، في حلة ثمينة ... وتقدم في خطاهينه نحو مخدع د أزاهير ، ا... ا...

ووقف عن كثب من الفتاة يتأملها ، وهى غارقة في فيض هادى . من نور القمر المحتجب ، فبهره حسننها . لقد كانت كاملة الاوصاف يزبدها بهاء حلتها المنسوجة من ناضر الزهر ، وفرادها المصنوع من خُصَل العذارى ا... ا... وكانت أنفاس الليل العبية تشيع في الجير دافئة طيبة ا... ا... ووقف يتوسمها طويلا ، ويعجب لهذه الانتسامة الوصاحة على وجهها العاجى ا... ا... وساءل نفسه : لماذا أنى ؟ .. وما الذى ينتوى عمله الآن ؟ ...

ووقف مترددا ثم وجد نفسه يتقهقر في حذر ، يحاول الإياب ، فعثرت قدمه بوسادة ، فوقع على الأرض ، ولكنه نهض عجلا يلم شعته ، ويسارق الفتاة النظر ، فألفاها قد انتهت ، وسمعها تقول في لهجة ذات نغمة منسجمة :

هل أرسلتك د خلوب ، بشيء ؟ ا... ا...

فلبث برهة وهو صامت ، يحدّ بصره في عينيها وداخله الشك في أمرهما : أعينان طبيعيتان تبصران ؟ أم صنعة بلور ؟ ا... ا...

— ١٦١ —

وسمع صوتها مرة أخرى في لهجتها المنتظمة :  
لماذا أيقظتني ؟ ...

ودنا منها وأنحنى أمامها ، وقال :

السلام على الاميرة « أزاهير » ، ...

فلم تتغير ملامحها ، وعجب لهذه الابتسامة الغريبة التي بقيت  
على حالها ، لم يتبدل لها وضع في نوم أو يقظة .  
وغنمعت الفتاة :

إن صوتك غريب ... وأغرب منه هذه الملابس التي ترتديها .  
لم أرسلتك « خلوب » ، إلى ؟ ...

وم الأمير أن ينهبها إلى خطتها في خطابها إياه بصيغة المؤنث ،  
ولكنه ابتسم وقال :

لم أرسلني « خلوب » ، بل أتيت من تلقاء نفسي ...

— لم أرك هنا من قبل ...

-- لست من سكان القصر ...

-- من أنت ؟ ...

الفت عليه هذا السؤال في لهجة أدهشته كل الدهشة ، لم تتغير  
نبرة صوتها ، ولم تنم صفحة وجهها ذي الابتسامة الدائمة ، عن أى  
انفعال أو تأثر ... وهاتان العينان البلوريتان كانتا على حالهما في

الامعان والجلود... وتراجع نحو الباب، وهم أن يلوذوا بالفرار، بيدانه  
وجدها قد نهضت من الفراش، وكانت رائعة القوام وليكنها لم تكذب  
تسير بضع خطوات، حتى ترامت له كأنها تمثال يتحرك، وسرت في  
جسمه رعشة، وطافت براسه شتى الأفكار، ورآها تتقدم نحوه،  
ثم لمست ثوبه وتتجصص، وقالت :

ستحضر لي « خلوب »، ثوبا كهذا بلأريب...!

ورآها تمسك يده، وتخرج معه إلى الشرفة الكبيرة التي  
تجيط بالقصر من كل جانب، وكان المكان هادئا بالغ الهدوء،  
ونور القمر على حاله ينفذ من الضباب رائعا مصفى، و « أزاير »  
تسير في خطواتها البطيئة المتماثلة، وانقسامتها هي هي لا تفيض  
ولا تفيض... وقالت له وهي تنظر أمامها :

لستم تخبريني من أنت ؟ ...

فابتسم لها، وقال :

أيهكم أن تعلني من أنا ؟ ...

ف نظرت إليه بلورتها اللامعتين، وقالت :

كلا، ولكن إذا رغبت في التحدث في هذا الشأن، فسأصغى

إليك...!

— إنى لست من أهل هذا المكان...!

— ١٦٣ —

- أنتِ إذن من العالم البعيد ؟ ..  
وأشرق وجهه تطلعا ، وقال :  
اتعرفين شيئا عن هذا العالم البعيد ؟ ...  
— إنه عالم الصخب والشرور ...  
— ثم ماذا ؟ ...  
— لا شيء ...  
— كيف لا شيء ؟ أهذا كل ما تعرفين عن العالم البعيد ؟ ...  
— لم تريدين مني أن أعلم أكثر من ذلك ؟ ...  
— لمجرد المعرفة ...  
— إن المعرفة شاسعة ، والمجهول عظيم .. فلا يمكننا الكشف  
عنهما مهما نفعل . لأن هذا خارج عن نطاق قدرتنا العقلية ...  
— ولكن ثمة أسرار عن هذا المجهول ، قد نستطيع الوصول  
إلى معرفتها .  
— لن تصلى إلا إلى التافه الضئيل ... وسيظل المجهول مجهولا إلى الأبد .  
— لكن هذا التافه الضئيل قديفيدنا .. وربما قادنا إلى العظيم ...  
— وهم ، ما تقولين ... فقد يكون في الكشف عنه أكبر  
الشرور . فمن الخير تركه ...  
كانت تتكلم بלהجتها المبتذلة ، كأنما شيخ وقور ، أوفقيه فيلسوف

— ١٦٤ —

ووقع بصرها على قلنسوته ، فسألت :  
ما هذه ؟

— قلنسوة ...

— ماذا ؟

— غطاء للرأس ، ...

— ولماذا تغطين رأسك ؟ ...

فأعاد جملتها مفكرا :

لماذا أعطى رأسي ؟ ... لقد نشأت وأنا أتخذ هذا الغطاء

للرأس ، دون أن أسأل عن فائدته .. لعله في الأصل قد استعمل

لحماية الرأس ...

— أترينه يحمي رأسك الآن ؟ ...

— ليس كثيرا ...

— إذن لماذا تستعملينه ؟

— أرجح أني أستعمله للزينة ...

— ولماذا تزينين ؟ ...

— لماذا أترين ... ما هذه الأسئلة ؟ ...

— أترينني قد ضايقتك ؟ ..

— كلا ، ولكنك منذ حين كنت تتكلمين عن المعرفة . وأنه

— ١٦٥ —

ليس ثمة فائدة من الاستزادة منها ... وأنت في الوقت نفسه، لكي  
تزدادى معرفة ، تطرينني وابلا من الأسئلة ...

— يلوح لي أني أخطأت ...

— بالعكس ... رأي أنك أصبت الإصاصة كلها ...

فصمتت برهة ، ثم قالت :

ألا تقولين لي لماذا تترينين ؟

— لتغدو هيئتي مقبولة ...

أى أن هيئتك بدون الزينة غير مقبولة ...

— يحتمل ...

— إذن ما تفعلينه نفاق وتغدير ...

فحدق فيها الأمير وقتا ، ثم ابتسم وقال :

قد يكون لونا من النفاق والتغدير ...

— إن النفاق والتغدير شر جسيم ...

فانطلق الأمير يضحك ، ثم أخذ يديها ، وقال :

« أراهير ، ... »

— ماذا ؟ ...

— أراك تتحدثين عن الشر ، فهل تعرفين ماهو ؟ ...

— هو شيء ردىء ...

— ١٦٦ —

- هل أتيت الشر لتفهمى ماهو ؟ ...
- لم آتته قط ا... .
- إذن كيف تعرفينه ؟ ...
- أعرفه بضده ، فأنا بالخير علبمة ا... .
- أمعرفتك بالخير الصرف كافية لأن تفهمى الشر ، وتميزى بينه وبين ضده ؟ ... .
- بل اريب ا... .
- ودنا منها على مهل ، حتى تقارب وجهاهما . ثم اقتطف من فمها قبلة ، وقال وهو يرنو إليها :
- أمن الخير هذا أم من الشر ؟ ...
- ولبثت « أزاهير » صامتة تنظر إليه ، ووجهها كما هو بملاحة الصلبة . غير أن أمرا واحدا قد وقع : أن ابتسامة وجهها قد اعترتها بعض خلجات عاطفة ، وسمع الأمير « أزاهير » ، تقول
- ماذا تقصدين بما فعلت ؟ ...
- قبيلتك ا... .
- ماذا تقصدين بأنك قبيلتى ؟ ...
- وصلت بين روحى وروحك فترة من الزمن ا... .
- فتوقفت « أزاهير » ، عن الكلام مفكرة ، ثم همست :

— ١٦٧ —

وصلت بين روجي وروحك ١٩  
وأرسلت الفتاة بصرها فيه ، وهي تقول :  
وما الذى دعاك أن تفعل ذلك ؟ ...  
— إعجابي بك ... أنت رائدة الجمال يا دأراهير ، ...  
وأنصت إليه ، وابتسامتها تغزوها الخلدجات بين حين وحين ،  
وقالت :

أنا رائدة الجمال ؟ ...  
— ألا تعرفين ذلك ١٩ ...  
— وما هو الجمال ؟ ...  
— الجمال ضد الدماء ؟ ...  
— وما هي الدماء ؟ ...  
فضحك الأمير ، وقال :  
ضد الجمال ...  
— أنت تعبين بي ...  
— ألم تقولى إن كل شيء يميز بضده ؟ ...  
— ألا يمكنك أن ترينى شيئا دميما ؟ ...  
فالتفت حوله ، وهو يجمعهم :  
هنا كل شيء جميل ، مع الأسف ..

— ١٦٨ —

فأمسكت بيده ، وقالت :

قولى لى ، ما هو الجمال ؟ ...

— الجمال ! ... الجمال هو ما تمواه النفس ، فيبعث فيها الغبطة

والارتياح ...

— إذن كل ما هو حولى جميل ؛ لأنه يبعث فى نفسى الغبطة

والارتياح ...

— بلا جدال ! ...

فصممت برهة مفكرة ، ثم قالت :

لماذا لا يحضرون لى شيئا دميما أراد ؟ ...

فابتسم الأمير ، وقال :

يلوح لى أن الدمامة شر ! ...

— وهل هى موجودة فى « العالم البعيد » ؟ ...

— « العالم البعيد » يزخر بشتى الألوان ؛ من جميل وديميم .

وخير وشر ..

فاضطربت أنفاسها شيئا ، وقالت وهى تحدّ بهرما فيه :

— ألا تحدّثينى عن العالم البعيد ؟ ...

— قد أريك إياه يوما ... أما الآن ...

وأمسك يدها يلاطفها ، وقال فى خنوّ :

— ١٦٩ —

الآن أريد أن أحدثك عن نفسك ... أنت رائعة الجمال  
يا دأزاهير ، ... رائعة كأنفاس الصبح : بديعة كورد الربيع ...  
يُندَ أن ...  
— ماذا ؟ ...

وصمت هنيهة ، ثم قال :  
أرى أن زيارتي قد امتدت ، فأغارت على وقت نومك ...  
ألا تأذنين لي بالانصراف ؟ ...  
— ومتى تعودين ؟ .. :  
— أأنت في حاجة إلى ؟ ...  
— لتسمعين شيئا عن د العالم البعيد ، .. :  
— قد أعود ، وقد لا أعود أبدا ...

فاختلج وجهها ... ودنا منها ، وطوقها بذراعه : وأمال رأسها  
على صدره ، وقبلها قبلة طويلة ، وما كاد ينتهي منها حتى أبصر عينيها  
البلوريتين المتناهيين في الصفاء والسكون ، قد طافت بهما بعض  
غيوم مريضة ، وغاضت ابتسامتها لحظة ، وهي تقول :  
أخرجني وانركبني ... ولا تعودى إلى أبدا ...  
وفي لمج البصر أخيفي الأمير عن وجهها ...

\* \* \*

تلك هي المرة الأولى التي تتأخر فيها الأميرة « أزهير » ، في نومها ، ولما أحضرت لها « خلوب » ، الفطور ، لاحظت على وجهها العاجي الناصع حمرة خفيفة ، كما أن لمحة عينها لم تكن في صفائها للألوف ، ولكن ابتسامتها ما زالت كما هي لم يتبدل لها شكل ... وبينما كانت « خلوب » ، تلقى على « أزهير » ، درس الحكمة إذ بالفتاة تقطع عليها حديثها ، وتقول :

كيف أستطيع أن أميز بين ضدين إذا جهلت أحدهما ؟ ...  
فنفحصتها « خلوب » ، برهة ، ثم قالت :

هذا موضوع قد فرغنا منه ، بعد أن وفيناها حقه ... أنسيك ما لفتتك إياه ؟ ...

— إني أحفظه كلمة كلمة .

— إذن علام هذا السؤال ؟ ...

— هكذا ...

وانطلقت « خلوب » ، تعيد على مسامع الفتاة ما كانت لقتها إياه في هذا الموضوع ، و « أزهير » ، أمامها تنظر إليها مصغية ... وقالت لها بغتة :

ألا تخبريني بذلك « الأمر » ، الذي يصل بين روجين ؟ ...  
فرمتها « خلوب » ، بنظرة عميقة ، وغمغمت :

- ١٧١ -

لذى يصل بين روجين ا...  
ثم اقتربت منها عجلة ، وقالت :  
ما هذا الذى يهيجس فى خاطرك اليوم ؟ ...  
فتركها « أزاير » ، وسارت نحو النافذة ، تستقبل بسمات  
النسيم ، ثم تمددت هادئة على متكأ وثير وأغمضت عينيها ...  
وهرعت « خلوب » ، إلى الوصائف ، فأسرت إليهن بمارأت  
وما سمعت ، وسرعان ما سرت الرعشة فى أبدانهن ، وانطلقن  
على الفور يتناقشن فيما يجب عليهن من عمل . أيعرضن الأمر على  
« زفاف » ، ليلغنه إلى الزعيم ، أم يكتمن الخبر خشية العقاب ؟ ...  
وبعد مفاوضة أخذن بالرأى الآخر ، واعترفن أن يعالجن  
الموضوع فى تدبير وحكمة ، وأن يشدن الرقابة على « أزاير » .  
وحل المساء ، وآب كل إلى مخدعه ، وأسبلت « أزاير » جفنيها  
ولكنها لم تتم . كانت تنصت إلى كل حركة أونامة ... وبغته فتحت  
عينيها ، وقالت :  
هاقد أتيت ا...  
وسمعتة بقول :  
لقد رغبت فى حضورى ا...  
وكان يرتدى حلة جديدة لا يلبسها إلا أبناء السراة ، ويتقلد

— ١٧٢ —

عنه المرة على جنبه الأيسر سيفاً ذا مقبض مرصع فقامت إليه ،  
ووقفت أمامه تنفح حصه معجبة بهيئته ، ثم قالت :  
ما هذا المعلق على جنبك الأيسر ؟ ..

— سيفي ا... .

— عصا تعبئين بها ؟ ...

— بل أذيق بها الموت ا... .

وأخذت سيفه تطيل النظر فيه ، وهي تردد :  
الموت ا... ؟

— حذار ، فهذا السيف رسوله الأمين ا... .

ورفعت عينها إلى وجهه ، وقالت :

ما هو الموت ؟ ...

— الموت ...

ثم تريت ، وعاد يقول :

الموت ضد الحياة ا... .

— ضد الحياة ؟ ...

— كل ما هو من خصائص الحي من حركة وتنفس ووحدة

جثمانية ، وما إلى ذلك ، لا تجدينه في الميت ا... .

— إذن فالموت انقلاب فظيع ا... .

— ١٧٣ —

- بل تغير بسيط : تحول يطرأ على المركب فيحمله إلى  
عناصره البسيطة ...
- أشر هو ؟ .
- من يدري ؟ ...
- كيف لا تدرين ؟ ...
- تعالى إلى البستان نستنشق نسيم المساء ...
- وأخذ يدها نخرجا إلى الشرفة ، ثم هبطا إلى البستان ...
- حديقة فواحة ممتلئة بأصص الأزهار والأشجار ، ذات تنسيق  
فريد ، تشقها طرق مرصوفة بالحصى الملونة ، وتجري فيها  
جداول عذاب . وكان الصمت شاملا يغشى كل شيء ، فيسمع  
لخفق الأقدام وقع جميل ...
- ووقع بصير الأمير على وعاء من المرمر فيه سائل ، فقال لها :
- ما هذا ؟ .
- عصير من الفاكهة صنعتته و خلطت به ...
- أهو شرابك ؟ .
- نعم ...
- أسمحين لي أن أذوقه ؟
- خذى منه ما يروقك ...

— ١٧٤ —

بشرع الأمير من الوفاء جرعة ، ثم قال :

سُرّاب لذيق لم أذق مثله في حياتي ...

— أترينه كذلك ؟ ...

ورنت إليه ، أزاهير ، برهة ، فابتسم لها ، وقال :

أسمحين لي أن ألقت نظرك إلى خطأ تقدمين فيه وأنت

تحدثينني ؟ ...

— أي خطأ تعنين ؟ ...

— تخاطبينني بصيغة المؤنث ...

— ماذا تقصدين بذلك ؟ ...

— إن دنياك كلها إناث على ما يلوح لي ... أما دنياي ففيها

الذكور والإناث .

ثم أخذ يشرح لها ما يلائم كل جنس من نعوت ، وما يجب

عليها أن تخاطبه به ، فقالت له في سر :

إذن أنت من الصنف الأول ؟ ...

— أصبت ...

فسرحت بصرها في الأفق مذكّرة ، وقالت :

وهل ثمة فارق بين الجنسيتين ؟ ...

— نعم ، ولكنه فارق لا يباعد بينهما ، بل يجمع ويؤلف ...

— ١٧٥ —

- كيف يجمع بينهما ويؤلف ؟ ...
- بالحب ا... .
- الحب ... ما هو ؟ ...
- هو امتزاج بين عنصرين ا... .
- أخير هو ؟ ...
- بل شر جميل ا... .
- شر جميل ؟ وكيف يتحد الضدان ؟ ...
- فأجال الأمير فكره لمحبة ، ثم لم يلبث أن أخرج من جيبه شبه
- مديّة ، وسرعان ما جرح بها جفن كفه ، فانبثق الدم من الجرح لجمعه
- في راحته . فقالت له أزاهير ، وهي تراقبه :
- ما هذا ؟ ..
- بعض قطرات من دمي ...
- دمك ... ماذا تعني ؟ ...
- دمي ... نعم دمي ... السائل الذي يغذي جسدي .
- ومالي به ؟ ...
- ذوقه ...
- لماذا ؟ ...
- قلت لك ذوقه ا... .

— ١٧٦ —

فماكادت تذوقه ، حتى قالت :

ليس طيبا . . .

— إنه كريه المذاق . .

ومزج الأمير مآجعه من دمه بعصير الفاكهة ، وقدم الوعاء لها ، وقال :

اشربي . .

فأطاعت ، وقال لها وهو يُراعيها :

أليس من السهل أن يتحد الضدان ، ويكونا مزاجا عجيبا ؟ . .

فتمتعت الأميرة :

لأنه مزاج لطيف . . .

وأقبل عليها الأمير ، ولف نفسه وإياها في عباة ، وسرعان

ما وجدت «أزاهير» نفسها متعلقة به ، وهو يطير بها في الجوتاركا

القصر وساكنيه . . . فأحست شعورا غامضا غريبا يسرى في

جسدها جعلها ترتعش ، فهست قائلة :

ماذا تقصد بهذا ؟

— أريد أن أحملك إلى موطن الشر والجمال . .

وكاد الدهول يستولي عليها ، واستبدت برأسها الدوار ، فأراحت

إلى صدر الأمير ، وأطبقت جفنها . . .

— ١٧٧ —

وجعل الأمير يرتو إليها ، وهو يعلو بين طبقات السحاب .  
فوجد شفتيها ترتعشان ، وقد اصطبتنا بحمرة لطيفة ، فأدنى وجهها  
من وجهه ، وغاب وإياها في قبلة مديدة . . . .  
ولما أراد إيقاظها همست قائلة ، وفها على فه :  
دعنا كذلك . . . .

— ولكننا وصلنا . . . .  
وفتحت أزاهير ، عينيها ، فغشيتها الأنوار الخاطفة ، فحجبت  
نظرها بيديها ، وهي تقول :  
أين نحن الآن ؟ . . . .

— في إيوان من قصرى . . . .  
وأخذ يدها وأجلسها على متكأ وثير ، وقال لها :  
استريحى لحظة ريثما أرسل من يحضر لك ملابسك الجديدة .  
— ملابس كلا بسك ؟ . . . .

— بل ما يشاهيها . . . .  
واكتفت أذنها بعض الصيحات والطبقة المختلطة ، فقالت  
وهي تحاول أن تنظر إلى وجهه :  
ما هذا ؟ . . . .  
— إنها ضجة الاحتفال . . . .

— ١٧٨ —

. أى احتفال ؟ ...

... لقد جمعت فى البهو الكبير القائم تحت هذه الحجرة جماعات  
... ، سيقضون الوقت ، فى طعام وشراب ، ثم فى سمر ورقص  
وعشاء .

... وأنا ؟ ...

... لا تخشى شيئا ، سأذهب لأدعو بوصيفة معها الملابس ...  
وتعلقت به ، وقالت :

لا تتركنى ! ...

— سأكون على مقربة منك ...

وخرج الأمير من الحجرة ، وبعد قليل دخلت الوصيفة  
بالملابس ، واختلت بأزاهير ، ...

وخلعت الفتاة ملابس الزهر ، وارتدت ملابس الأميرات  
من بنى الإنسان . ووقفت أمام وصيفتها تزينها وتعطرها ، وتحفف  
شعرها ، وتلبسها الحلى الغوالى ، ثم ذهبت بها الوصيفة إلى امرأة كبيرة  
فما إن تراءى لها خياها كاملا تجاهها حتى تراجعت بضع خطوات ...  
ثم مالبت أن تقدمت وهى تتأمل نفسها طويلا .

ودخل الأمير دبرجد ، وهو يصبح طربا :

يا للجمال الإلهى ! ... تعالى فقد حان الوقت لأن أظهرك

— ١٧٩ —

للدعوين . ولف ساعده بساعدها ، وترك الحجرة ، وانه لم يسير  
بجواره صامته وعيناها تائهتان . وما إن أقبلت على السلم ، واخذت  
ينزلان في الدرج ، حتى لمحت « أزاخير » البهو الأدنى يموج بحشد  
كبير من الزوار ، فتوقفت ثم غمغمت :

لا . لا . لا أريد . . .

— كيف ؟ . . .

— عد بي إلى قصرى . . .

— ألا تريد أن تشاهدى دنيائى ؟ . . .

— وماذا يهمنى منها ؟ . . .

— فى الواقع لا شئ ، ولكن ثمة نساء فى البهو ، أميرات  
وغير أميرات ، تتنافسن فى الملاحاة والزينة والمقدرة على اصطيد  
قلوب الرجال . . . إنه منظر فريد . . . يجب ألا يفوتك مرآه . . .  
فقلت بصوت خافض :

عد بي إلى قصرى . .

ونزل معها فى الدرج ، وهى تزداد التصاقا به . وما إن أشرفا على  
البهو حتى شخصت إليهما الأبصار ، وسكنت على الفور الضجة . وبعد  
برهة سمع هتاف الجمع يردد :

مرحبا بالأمير « زبرجد » . . .

وأجاب الأمير صائحا:

مرحبا بكم أيها الإخوة... لقد وعدتكم بمفاجأة طريفة، وقد  
وفيت بوعدي... إن الأميرة «أزاهير» سيدة مملكة السحاب،  
قد تواضعت فشرفت بحضورها هذا الاحتفال... حيوا الأميرة  
معنى ورددوا: مرحبا بالأميرة «أزاهير»، سيدة مملكة السحاب...  
فصاح الجمع بعده يردد قوله في حماس، ثم ركع الأمير «زبرجد»  
أمام «أزاهير» ولثم يدها، فأنحنى الناس كلهم لها في تحية طويلة.  
فبغت «أزاهير» نمدق برهة فيهم، ثم رفعت رأسها في زهو  
وخيال، وردت تحيتهم في صيحة عالية...!

وسار بها الأمير يخترق وإياها الصفوف، والجمع يتزاحم  
حولها يلتمسها بعيونه المتطلعة، وأخذت الضجة تعود إلى سابق  
عهدا، وانطلقت الموسيقى تخلق بأنغامها في جو المكان، وقد اشتد  
سطوع الأنوار، وكانت «أزاهير» تسير وهي لا تعرف من أمرها  
شيئا، لقد اختلط أمامها كل شيء... ما هذا الذي تراه: حقيقة  
هو أم خيال؟ وما هذا «الزبرجد» العجيب؟ وما شأنه معها؟... وهذا  
الجمع المندفق بها، وهذه الأصوات، وهذه الأنوار... إنها لتحس تخالفا  
ورأها الأمير ترمح، فاحتضنها فاذأى تفقد الحس بين ذراعيه...  
وذهب بها إلى حجرة قريبة، وأرقدها على أريكته ليته، ولم يدع

— ١٨٩ —

أحدا يتبعه ، وعُنى بها حتى أفاقته وإذْ رآته قالت :

ماذا حدث ؟

— لا شيء .. أخذك على حين غرة نعام رقيق ...

فدارت بعينها حولها ، ثم قالت :

عد بي إلى قصرى ..

— هذا ما فكرت فيه أيضا ...

— هلم ..

وأدى كأسا من فها ، وقال :

اشربني ! ...

— ما هذا ؟ ..

— شراب مقيد ..

فشربه على مضض ؛ إذ لم تستغ مذاقه وقالت .

أشعر بجسمى يلهب ...

— لا تخشى بأسا ...

— متى تعود ؟ ..

— في الحال ! ...

— وأنت ماذا تنع بعد عودتى ؟

— سأرجع هنا ! ...

— ١٨٢ —

وأخذ كأسا فأفرغ شرابها في فمه دفعة واحدة ، فقالت :

أتب هذا الشراب ؟ ...

... نعم ! .. لما فيه من قوة عارقة ! ...

... استغنى منه ! ...

\* \* \*

وخرج الأمير « زبرجد » ، و « أزاير » ، ثانيا إلى البهو ،  
فاستقبلاهما الجميع بالتهلل ، ثم لم يلبث الناس أن انصرفوا إلى  
أفهامهم ، وأخذوا بين الفينة والفينة يطعمون ويشربون ، فاندفع  
« زبرجد » بفتاته معهم يشاركونهم طربهم وقصصهم ... ووجدت  
« أزاير » نفسها تضحك كما يضحكون ، وترقص كما يرقصون ،  
وأسرفت في الشراب . وكانت تلازم الأمير ، لاتدعه يبتعد عنها .  
وانتهت مرة فرأت نفسها أمام كأسها منفردة ، وعن كسب منها  
جماعة من الفتيان ينظرون إليها مبتسمين ، وحدث من بصرها  
حولها تبحث عن الأمير ، وبعد لآي وجدته في حلقة الرقص مع  
فتاة يخاصرها ، فألفت نفسها تترك مكانها على عجل متجهة صوبه ،  
فلما دنت منه اختطف سيفه من غمده ، وفي لمح البصر أحس  
يدها تهوى على الأمير ، فس السيف كتفه ، ثم ارتدت صائحة ،  
وقد خيّل لها أن الأرض تميد تحت قدمها ، وأن البهو قد انقلب

— ١٨٣ —

فأصبح عاليه أسفله... ورأت نفسها تسقط... ولما عاد إليها وعيها  
ألقت نفسها مع « زبرجن » منفردين في حجرة ، فبادرته بقولها :  
ماذا فعلت ؟ ...

فأجابها مبتسما :

ضربتني بالسيف ! ...

— إذن قتلتك ؟ ...

— كلا ! ...

— بل أنت ميت ! ...

— لنم أمت ...

— كيف ؟ ...

فلاطف خدها ، وقال :

إن السيف في يد الحسنة يفقد مضاه .

— أنت تكذب ! ...

— « أزاير » ، ...

— لقد أتت « أزاير » أمراً فظيعاً ...

ثم امتلأت عينها بغثة بالدموع ، ومالبت أن أحس بالقطرات  
الساخنة تسبح على وجنتها ، حتى ارتاعت وأخذت تتحسسها  
بأصابعها ، وتقول :

ما هذا ؟ ...

— إنها دموع تسكبها عيناك ؟ ...

— دموع ؟ ومن أين أنت ؟ ...

— من نبع قلبك ...

— أليست في روحي تنسكب قطرة قطرة ؟ ...

وأرادت أزاهير ، أن تسمع تلك القطرات بكفهم ، فقال لها الأمير :

لا تفعل ! ...

— لماذا ؟ ...

وأمسك يديها ، وجعل يحرق في وجهها وقتا ، وقطرات  
الدموع اللؤلؤية تنحدر على صنحته ، تارة هادئة وطورا عجيبة ، ثم  
أدنى رأسها منه ، وهوى على فيها بقبلها قبلة حافلة ...

\*\*\*

وأخذ الأمير فتاته بين ذراعيه ، وبسط على منكبيه عباءته ،  
وطار بها يشق السحب عائدا إلى القصر . وفيما كانت أزاهير ،  
متوسدة رأسه وهي تنظر إليه ، وهو يطوى أطراف عباءته  
ويبسطها كما يفعل الطائر بجناحيه ، همست في أذنه :

عجيب أمر هذه العباءة ! ..

— إنها بدعة البدع ، تخفى من يرتديها عن العيون ، وتذهب

— ١٨٥ —

به حيث شاء ، متى شاء . . . .

ودخل القصر . وأشعة الفجر ترحب بهما ، وأرقد زبرجده الأمير  
على فراشها ، وقد أصبح وجهها يتلهب بنضرة الحياة ، ثم وقف قبالتها  
صامتا ، وظره لا يفارق طلعتها ، فقالت له وقد ألمح عليها التعب :  
لماذا تنظر إلى هكذا ؟ . . .

— إنها نظرة الوداع الأخير يا أراهير . . . .

فتفتحت جفنيها الذابلين ، وقالت :

أزعم أنك لن تعود ؟ . . .

— نعم . . . .

ثم صمت برهة ، وهو ينظر أمامه نظرا قائما ، وهجس .

لماذا أردت كشف سر هذا المكان ، والوصول إليك ؟ . . .

ثم ركع أمامها ، وأمسك يديها ووجهه قبالة عينيها . ولشأ وقتا  
ونظرا نهما منصلة ، ثم انحنى الأمير على يديها ، واندفع يائسهما . .

وقام يريد الخروج ، فاستبقته قائلة :

ألا تترك لي شيئا يذكرني بك ؟ . . .

— أترغب في شيء معين ؟ . . .

فهمست له برغبتها . . . فوقف أمامها برهة مترددا ، ثم ناو لها ما

طلبت ، وخرج على عجل ! . .

— ١٨٦ —

قالت « خلوب » إذ رأت أن النوم قد استبد « بأزاهير » إلى وقت متأخر ، فدخلت عليها توقظها ، ولما دنت منها لحظت أن وسادتها مبتلة ، وقد عهدتها دائما جافة . أهو ندى الفجر قد تسفل فيلبها ؟ ... ولكن نظرة واحدة إلى وجه « أزاهير » كانت كافية لأن تلقى بالرعب في قلبها ..

وتقدمت « خلوب » فأيقظت « أزاهير » ، وما إن فتحت الفتاة جفنها حتى بادرتها المربية بقولها :

أشاهدت رؤيا أثناء نومك ؟ ...

— رؤيا ؟ ...

— رؤيا رهيبة ؟ ...

وأخذت « أزاهير » تتلفت حولها ، ثم قالت :

رأيت كأن السحاب الذي يحيط بالقصر قد هبط ولا مس الماء ... فنظرت إليها « خلوب » وأجته ، ثم خرجت تعدو إلى الوصيفات . وهي تكاد تجن ، وشرحت لمن حالة « أزاهير » ، فسرت في أجسادهن الوعدة ، وتمثلت لمن مملكة الظلام بأعاصيرها السود الهوج ، تلهب أجسادهن بسياطها الكاوية ، إذ أعدها لمن « بلزبول » ، إذ ألم يصبن نجاحا فيما كلفته ...

وتفرقن شيئا يراقبن « أزاهير » في غدوها ورواحها . البقية

تقضى الوقت ساهمة مفكرة ، وقد أضربت عن تلقى دروس الحكمة ،  
ثم رأيتها تقوم إلى الحديقة ، وتطيل النظر في ما بها حيث تنعكس  
على صفحة الماء صورتها ، وشاهدتها والعجب أخذت من مأخذه  
وهي تقطف الأزهار القانية ، تلون بعصيرها خديها . ثم رأيتها وهي  
تصفف شعرها على نحو جديد لم يعرفه من قبل ، ثم لاحظتها  
وهي تسير على حافة الغدير ، تتغاید في مشيتها .

وكانت « خلوب » وصواحبها كلما رأيتها تفعل ذلك ، اصطكت  
أسنانهن هلعاً ، واعتزمن ألا يتركها منفردة على الإطلاق .  
ولما حان وقت النوم ، وتددت « أزاهير » على فراشها ،  
ازدحمت التابعات ، وعلى رأسهن « خلوب » ، حول بابها وتحت  
نافذتها . فأقن أنفسهن حراساً عليها . . . .

\* \* \*

وقبيل السحر هبت « أزاهير » من نومها ، ونهضت من فراشها  
في حذر ، فوجدت الوصيفات قد استغرقت في النوم ، فقصدت  
على الفور إلى المخبأ الذى أخفت فيه تذكارات الأمير ، وأخرجته ،  
فكان العبادة السحرية !

وبسطتها على منكبها ، وفي لحظة اختفت عن الأنظار . . .

# الجزء

كان في مستهل العقد الرابع من عمره ، ينتظر شبابه ، وتكتمل فيه الرجولة والحماسة ...

مهوى فؤاده : الموسيقى ، في جوها يحيا ، ومنها يستمد هناة البال ...

تلمح في عينيه وميض الأحلام ، وترى في وجهه سمات من وداعة الروح ...

تمسك بحب الفن ، فوهبه حياته ، وقصر عليه جهده ، ولكنه مطالب العيش تناديه ، وليس هو بذي مال فيستغنى عن التكسب . وإذن فلا أقل من أن يطلب الكسب بفننه المفضل ...

وكذلك آثر أن يكون مدرسا موسيقيا ، فإنه في قيامه بهذه المهمة ، لا يستدل الفن بل يعمل على إعزازه ، إذ يسكب روحه ، وروح الفنان ، في أنفُس طلابه ، فكأنما هو يضاعف بذلك من شخصيته ، وينمي من سلطانه ، ويضيف أعمارا متعددة إلى عمره ...

ويوما جلّبت إليه صبية تحبو إلى العاشرة ، أعيت أهلها في تعلم العزف على « البيان » ، وكانوا حرصا على أن تحق ذلك الفن



الذى أصبح من حلية التمدن الحديث ...  
 وراضها الأستاذ بأسلوبه وحيلته ، حتى أسلس قيادها ، فأقبلت  
 تتذوق النمن وتألفه ، وتبدل كرهها للوسيقى شغفا أى شغف ١١ ...  
 وكان من عادة الأستاذ أن يقيم فى بعض المناسبات حفلات ،  
 يدعو إليها أسر الطلاب ، ونخبة من شعبة الفن وأصفياه ، فيعرض  
 فى هذه الحفلات نماذج من جهده الفنى ؛ مثلا فيما يعزفه الطلاب ...  
 ومرة أقام الأستاذ حفلة ممتازة ، فانتظم عهده مدعويه ، وكانت  
 أسرة الصبيّة أخوف ماتكون ، لاتدرى ما هو نصيب فئاتها من  
 التوفيق أو الإخفاق ؟ ...

وبدت الصغيرة فى صف الطلاب ، تكسوها حلة وردية  
 ساذجة ، وتتميز بوسامة هادئة ، على الرغم مما شاع فى وجهها من شحوب ،  
 وما تجلى فى عينيها من قلق واضطراب ...  
 وتتابع الطلاب على المنصة ، يؤدى كل منهم ما طلب إليه ،  
 ويظفر بتصفيق الإعجاب والاستحسان ! ...

حتى جاءت نوبة الصغيرة ، فخطت إلى البيان ووجهة تنعش ؛ كأنما  
 قد انسدت على عينيها غشاوة حجبت عنها الطريق ! ...  
 فدارت برأسها مذعورة تتلصص الخلاص من حرج موئس ،  
 فطالعتها وجه أستاذها ، قد انتبذ مكانا من المنصة يخفيه عن العيون ،

— ١٩١ —

واقتر ثغره لها عن ابتسامه رفيقه ، تحمل بين ثناياها الطمانينه  
والوثوق ... فتعلقت نظراتها حيناً بعينه ، تستمد من وعييهما  
المتألق روح الهداية ووحى الفن ...

وإذا هي ماضية إلى «البيان» ، وما برحت عيناها موصولتين بعيني  
الأسناذ ، وجلست على كرمى المعرف ، وامتدت يداها تجري  
أصابعها على مفاتيحه ، فانبعث الأنغام تتموّج وتندرج ، وتعلو  
وتهبط ، وتسرى في أرجاء الحفل تداعب المسامع في رقة ولطف ...  
وكان أمام الفتاة صفحة الموسيقى ، ولكنها لم تلق عليها نظرة ،  
بل كانت تعزف ، وهي تنظر إلى أستاذها ؛ كأنها تقرأ على جبينه  
الناصع النيّر مراتب الأنغام ...

وعم الجمع صمت شامل ، وأرهفت الأسماع ؛ لتستوعب ذلك  
النغم الشجي ، وتستمره في شغف وإقبال ...  
وألفت الصيئة نفسها تحيا في ألفاف نشوتها ؛ كأنها في غيوبة  
منام ، وتنتقل إلى أفق علوى لا تحس فيه الحاضرين من وجود ،  
ولا ترى إلا تينك العينين ، عيني أستاذها ، تيران لها السيل .  
وبعد حين أحست الصيئة بأنها تهبط ويبدأ من أفقها العلوى  
إلى مستقرها الاصيل ، وإذا هي تستفيق من غفوتها الروحية ،  
فتجتمعت أصابعها تصافح «البيان» ، إلهاداً بالحنان ...

و تعال التصفيق ، و حمسى الضجيج ، و تحنّت الحناجر بالهتاف .  
 لقدت الفتاة في الجمع حيرى ورجلة ، تسائل نفسها :  
 ما خطب الناس ؟ ...  
 وفيه هذه الصبغات ؟ ...  
 وتحملت على ساقها ، تمشى في خطاها المتعثرة ، تكاد تنكفى ..  
 فتبادر إليها الجمع يهشونها ويغدقون عليها الثناء . ودنا منها والداها  
 في حنو وابتهاج ، يزفان إليها مكافأة النجاح ...  
 وانتهت الفتاة لنفسها ، والناس من حولها يتحلقون ، فدارت  
 بعينها تنفق شخصا بعينه ، فلم تره ... وأطالت البحث والتفقد ،  
 تخبطى بنظراتها جموعا لا يعنها من أمرهم شيء ... !  
 لأنها تريد أن تسمع كلمة الرضا من فم ، وترى نظرة الاستحسان  
 في عينيه ... !  
 في تلك الكلمة وهذه النظرة برهان توفيقها ونجاحها ، وليس  
 في سواهما برهان ... !  
 وأحست دافعا يحدها ، فانطلقت تشق الزحام ...  
 وانتهى بها المسير إلى ذلك الركن القصي بجوار المنصة ، ولم  
 يكن يمر أى من جمع الناظرين ، فوجدت أستاذها هناك ، يقاب النظر  
 في دقر الموسيقى في جدّ واهتمام ... !

— ١٩٣ —

ووقفت أمامه تُشعره بقدمها إليه ، فأإن أخذها بصره حتى  
هش لها ، وتطلعت أساريره ابتهاجا بها ...

وأمسك يديها يهرهما قائلا :

مرّحى ... مرّحى بابنية ... إنه لفوز عظيم ...

فأجابته في صوت مختلج النبرات ، وعينها حيرى لا تستقر نظراتها :  
أحقا أحسنت العزف ؟ ...

— كل الإحسان ...

— شدة ما كان أبى وأمى ياقسين من أمرى ، وهما الآن يرعنيان عني ...  
فلاطف يديها في رقة ، وقال :

لقد كنت تليذة بمجتهدة وقد وصلت باجتهادك إلى درجة طيبة ...  
فشدت على يد أستاذها ، وهى تسأله في الحاح ساذج :  
أحقا أبدعت ؟ ...

فانفرج فمه عن ابتسامة رحيبة ، وقال :

— كل الإبداع ...

كانت الفتاة مائلة تجاهه في حلقها الوردية ، كالزهرة الناضرة ...  
أشاعت فيها غبطة النجاح يقظته وهراحا ، فأسبغت على طفولتها  
رونقا جذابا ... توجهت وجنتهاها ، وتألقت عيناها ، وتجلت فيها  
سمات باكرة من أثى المستقبل ، وخصائص لماحة من حسناء الغدا ...

( ١٤ — ٢ )

في وقفها وشارتها ورنة صوتها ، يترامى طيف المرأة في أبهى حلالها ،  
ومن حولها تنبعث نفحات لطاف من أريج الفتنة والسحرا ...  
والقى الأستاذ على فتاته نظرة طيبة صافية ، وقال لها :  
إني أعد لك هدية أجزيك بها على نشاطك واجتهادك .  
فتطلعت إليه الفتاة ، وهي تقول في سذاجة الطفلة المحتاجة :  
وأنت ؟ ... ألسنت أحق مني بالمكافأة ؟ ... وماذا يجب على  
أن أمنحك ؟ ...

فتضاحك الأستاذ ، وقال .  
وماذا عندك لي من عطاء ؟ ...  
فواصلت الفتاة حديثها في احتياج الطفولة :  
أطلب ما بدا لك ...  
فرنا الرجل إليها فترة ، يحتل محببها الوديع ، وقال :  
حسبي منك هذا يا بنية ...  
وأخذ يدها يرفعها إلى فمه ...  
فالتصت عيناها بغتة ، وهي تمنع ...  
إنها لتحس بغريزتها أن قبلة اليد ليست هي المنحة المختارة ...  
إن اليد وإن كانت غضة بضعة ، لمهي أعجز أن تمنع الأعز الأغلى !!  
إن اليد لتعبا عن أن تصل بين الروح والروح ، وتجييب

- ١٩٥ -

الإحساس بالإحساس...

فلتمنح أسنادهما ما تراه جديرا بما له في عنقها من جميل...  
وتدانت منه ، واشرايت إليه ، وهي شاخصة البصر ، مهتزة

الأوصال...

وسرعان ما ألقي الأستاذ يديه تحملانها ، حتى دنا وجهها من

وجهه...

فأقبلت شفاته على ثغرها الصغير ، تقطفان منه قبلة هائلة ،

كانت أحسن الجزاء...!



## أما ...

مات ابنها وهو في سن الأربعين ، وكان رجلا كله نشاط وقوة  
وجمال ، يعيش في الدنيا عيشة كفاح وانتصار ... مات فجأة ميتة  
بلهاء ... بعد أن قهر المرض والصخر والحول ، وقد خبل إليه أنه  
قهر الموت ولو إلى حين .

وكان وحيدها ... رآته ينمو أمامها ويتربع ... من عود  
صغير كالدن ، إلى جذع كبير قوى يحمل فوقه الأغصان المورقة  
المحملة بأطيب الثمار . وكان عماديتها ، ترى فيه جلال الرجولة  
وجمالها ، فتحمي في كنفه هائلة البال لا تخشى شيئا من متاعب الحياة ،  
تفورا سعيدة به وبأنفسها . ولكنه كان قبل كل شيء « ابنها » ،  
ذخر أمومتها ومهبط حنانها . فلما مات ألقت الدنيا حولها فارغة  
لا معنى لها ... ولم لا تكون فارغة وابنها كان الحياة كلها -  
الحياة التي تزخر بالحركة والنور ؟ ...

وهجرت المنزل الذي كانت تسكنه معه إلى بيت خرب تازح  
عن العمران . وآلت على نفسها ألا تبرحه إلا عمولة على الاعناق ،

حيث تنعم بالراحة الأبدية بجواره ... وكان حزنها في بادية  
 الأمر يستثير الشفقة في القلوب ، ولكنه تحول على توالي الأيام  
 إلى حزن قاس بغيض ، وانقلبت فيها تلك الوداعة الباكية  
 إلى سخط نائر ، ينثر حوله الحسد والكراهية . فكانت تمسك  
 الساعات الطوال صامته ، جامدة العين ؛ كأنها تمثال من حجر ، ثم  
 تتورد دفعة واحدة تسب العالم وتلعنه ، وتعجب للناس كيف  
 يجدون في الحياة متعة وهناءة ، فتطاولهم أنفسهم على الضحك  
 والمرح ، على حين أنها خربت كل شيء ، حتى لذة الابتسام ...  
 وكانت تخرج من حجرتها في ملابسها الفضفاضة السود ، محنية  
 الظهر ، تعتمد على عكازتها ، تطوف بالمنزل ؛ فكانها شبح من  
 أشباح الليل يحوس خلال المقابر ...

\* \* \*

وكانت لهذه الأم ، أخت أصغر منها سنا ، تسكن الصعيد  
 مع زوجها . ولم تكن الاختان على وفاق كامل ، وكانتا لا تتزاوران  
 إلا لهما . ففي يوم من الأيام ، بينما كانت الأم جالسة في حجرتها ،  
 تعرض همومها ، إذ هبطت عليها أختها تزورها ، وكانت مقابلة فاترة  
 أعقبها صمت ثقيل . وجلست الأم ، في مكانها ، لا تتحرك ،  
 تنظر إلى الفضاء أمامها وهي تسائل نفسها عما دعا أختها لزيارتها .

أحاطت تعزيها الآن ، وقد أهدت واجب التعزية يوم مات فقيدها ؟ ... أم جاءت تشمت بها ، وتسخر من مصابها ؟ ... وأخيرا ، تكلمت الأخت الصغرى ، فقالت :

« لقد أبطأت في تعزيتي لك ، ولكن لم يكن ذلك عن قصد ، كنت طريحة الفراش - بعد الولادة - أجالد الموت أياما متواصلة في بأس كبير . وقد مر على وقت فقدت فيه وعي . حتى ظن الذين حولي أنه لم يبق لي في الدنيا إلا بضع ساعات . ولكن شاء القدر أن أحيوا ويحيا معي طفلي ... »

وأشارت إلى لفيفة في حجرها ، وهزتها برفق ، فنحركات اللفيفة ، وانبعث منها صوت ضعيف . ولم تكن « الأم » حتى هذه الساعة قد أعادت هذه اللفيفة شيئا من اهتمامها ، فليد سمعت الصوت التفتت إليها ، وبدأت تنفحها بشيء من الفضول .

وعادت الأخت الصغرى تتم كلامها ، فجعلت تروى لأختها دقائق مرضها وعسر ولادتها ، و« الأم » صامتة مشغولة عن حديثها المستفيض بالنظر إلى الطفل ومراقبته ، فرأته قد استطاع بحركات يديه أن يكشف النقاب عن وجهه . وكان وجهها صغيرا طلق الملاح ، يدور بعينيه البراقبتين حوله في حيرة وتطلع . وقد بهره انعكاس الضوء اللامع على مختلف الأشياء ، وشغله تباين الأصوات .

— ٢٠٠ —

وكان أحيانا ينهش ثم يعبس ، وتارة يضحك ثم يبكي ، ويداه وقدماه في حركة دائبة .

وطال حديث الأخت ، ووالأم ، ما زالت غارقة في صمتها وهي في شغل عن كل شيء حولها بما تراقب من ابن أختها الصغير ، تلك الظاهرة الحية الجديدة التي دخلت هذا المكان الخرب الهاج لتشعره بأن في الحياة تجددًا ونشاطًا . وكان الطفل وهو ماض في مناغاته ، يتعالى بضحكته ويصبح بكائه ، ويضرب الهواء بيديه ورجليه ، يريد أن يثبت لهذه العجوز التي طحنها السنين والأحزان ، أنه - على الرغم من ضآلة جسمه - مخلوق عظيم . إنه الحياة مصغرة تكمن فيه ضجنتها وقوتها وهجتها . . . .

وكانت والام ، تنظر إليه فترى فيه صفحة من صفحات شياها ، صفحة زاخرة بشتى الذكريات والصور المحبوبة . وتحولت نظراتها إليه من نظرات فضول عابرة إلى نظرات شغف عميق ، وأحست عاطفة جديدة تدب في قلبها . . .

ولاحظت الأخت الصغرى أن أختها الكبرى ما زالت صامتة ، لانوليها طرفا من عنايتها ، فرأت أن تختصر الزيارة ، وتغادر البيت . وتحركت تبغى القيام ، فوجدت بللا في ثيابها ، فصاحت بوليدها تنهره ، وبكى الطفل محتجا ، فاليث والام أن

— ٢٠١ —

أقبلت على أختها ، وبسّطت ذراعها ، وقالت :

« ناوليني إياه ... دعيني أغير لفائفه ... »

وأخذت الطفل من حِجْر أختها ، وجعلت تهشبه فاطمأن ، ونظر إليها محلقاً : كأنه يحاول أن يستطلع أمرها ! ... وما إن شعر يديها تضامنه إلى صدرها حتى ابتسم لها ، فابتسمت له وقبلته . وكانت هذه أول ابتسامه عرفها وجهها منذ أن قضى قعيدها نجبه ! ...

وهرعت بالطفل إلى حجرة نومها ، فأرقدته على سريرها ، وأخرجت له من خزانة ملابسها لفائف قديمة كانت لابنها الراحل في طفولته ، وقد احتفظت بها على سبيل الذكرى . ثم شرعت تستبدلها بالفايفه المبلة ، ومضت تدور به في الحجرة ، وهي تلاحظه وتناغيه ، حتى أطبق جفنيه ونام .

ودخلت الأخت في هذه اللحظة تستبطن أختها ، فأشارت لها الأم « إشارة السكون ، وهمست قائلة :

« إنه نائم ! ... »

\*\*\*

ومكثت الأخت الصغرى في ضيافة أختها الكبرى أسبوعين كاملين قضتهم الأم بجانب الطفل ، تُعنى به وتُدبُّ له . ونشطت للعمل ، وتفتحت شهيتها للطعام ، فاستقام عودها ، وتورد وجهها .

— ٢٠٢ —

وكانت تخرج إلى باب بيتها تستوقف المارة تحدثهم ، وقد يماجنونها  
 قتما جنهم ، ويطلب منها بعضهم الإحسان فلا تبخل عليه به ،  
 وانقلب المنزل الحزب المهاجم البغيض منزلا عامرا يقطا ، كله حرارة  
 ونور ...

\* \* \*

وبعد انقضاء الأسبوعين ، أعدت الأخت الصغرى عدنها  
 للرحيل . ورافقتها أختها الكبرى إلى الباب لتوديعها . وكانت تسير  
 صامتة بطيئة الخطا ... وحينما قبلت أختها وانحنى على الطفل لتقبله  
 رأتة يلتسم ، ويمد يديه نحوها ، فأخذته بين ذراعيها في لفة ، وضمته  
 إلى صدرها واحتضنته ، وكأها تحاول إخفاءه تحت مطرفها ...  
 وأخيرا رفعت عينها المخضلتين بالدموع نحو أختها ، وقالت  
 لها في ضراعة واسترحام :  
 د ألسـت يا أختاه في حاجة إلى من يقـوم لك بخدمة  
 طفلك ؟ ...

# أَبُوعَرَبْ

في خيمة حقيرة من الوبر . قريبة من ضيعة ، عماد بك ، يعيش سليمان وبيده ، وزوجته ، وأولاده . وهم قوم من الأعراب الرحّل ، يرتزقون من تربية الأغنام ، وينتقلون بها من مكان إلى مكان ، طلبا للمرعى . و«سليمان» هذا يسميه الناس «أبوعرب» ؛ احتراماً له ، وخشية منه . وهو رجل عملاق الجسم ، عريض المنكبين ، له وجه جاف مشدود الجلد ، إذا سار ملتجفاً عطشاً الأيضي الكبير ، خلته ناقة تنهّدي في سيرها . وإذا سمعته يغنى غناءه ذا الروى الواحد ، وهو يدخل الطباقي في قصبته - خيل إليك أنك على مقربة من ذئب يعوى . سريع الغضب ؛ إذا استفزه أحد هاج هياج الثور الوحشي . سريع الرضا ، إذا لوطف أصبح كالحمّل الوديع ، كله بشاشة وإخلاص .

يحب أولاده السنة حبا عظيماً ، فكأنه أم وموم تغمرهم بحنانها الدائم . ولسكبه ذهب ، في قلبه مكانة أحد أولاده ، فقد التقطه من الطريق رضيعاً ، يكاهيك من الجوع ، وآواه وعُني به حتى

كثيراً وترعرع . وأصبح الدوم حامى قطيعه ، وحارس خيمته .  
وهو كلب أسود غزير الشعر ، مخيف الهيئة ، تأثرت أخلاقه  
بأخلاق سيده ، فاكتسب منه العنف فى مواطن العنف ، والحلم  
حيث يجب الحلم .

وكان د عماد بك ، صاحب الضيعة يقيم مع زوجته وابنه  
الوحيد . حامد ، فى بيته القديم الذى يسميه الفلاحون « بالقصر » .  
و د حامد ، غلام فى العاشرة مدلل ، محبوب من والديه حبا يقرب  
من العيافة . يقضى وقته مع خادمه « مبروك » ، يصطادان العصافير  
والسمك ، أو يلعبان على التلال القائمة على حافة التربة ؛ يقذفان  
الكلاب بالحصى والحجارة . وقد قامت بينه وبين « ذهب » خصومة  
كبيرة ، نشأت من تحرش الغلام بالكلب ، فأضمر كل منهما  
لصاحبه العداوة ، فإذا أحس « ذهب » وجود « حامد » - ولو على  
مسافة بعيدة منه - نشر أذنيه باهتمام . وجعل يشم الهواء وهو ينظر إلى  
جهة الغلام نظرة شذراء مكشرا عن أنيابه متحفزا للهجوم ، ثم يبدأ  
ينبح نباحا عاليا . وإذا لمح « حامد » « ذهبا » - وكان فى رفقه من  
أتباعه - أمطر الكلب وابلا من الحجارة ، واحتمى بمن معه إذا  
هجم الكلب عليه .

وخرج « حامد » ذات يوم ومعه « مبروك » وقصد التلال يلعبان

فوقها على عادتهما . وكانا وحيدين في هذا الوقت . واتفق أن جلا  
« ذهب » ليشرب من التربة ، وبينما هو منهمك في الشرب إذ رماه  
حامد بحجر أدى رأسه . فقفز الكلب متمرا يبحث عن الجاني ، وقد  
أحس أنه لن يكون غير « حامد » ، وكان « حامد » محتبما مع خادمه فوق تل  
عال صعب المرتقى . وعرف الكلب مكان الغلام ، فهجم صاعدا في  
التل وهو ينبس نباحا جافا متقطعا ، غير مبال بوابل الحجارة ينال  
عليه بشدة . وأحس الغلام الخطر ، فوهنت عزيمته ، وتخاذلت قواه ،  
وجعل يصيح بصوت مخنوق يستنجد بدومبروك .. ولكن « دومبروك » ،  
أطلق ساقيه للرييح ناجيا بنفسه ، ووجد « ذهب » الميدان أمامه  
خاليا ، وقد زاده هذا الانتصار قوة وإقداما ، وأوشك أن يصل  
إلى قمة التل ، ولم يعد يفصله عن الغلام غير مسافة قصيرة . ورأى  
« حامد » الكلب يقترب ، وعيناه تقدحان شررا ، وشعره قائم كالشوك ،  
فارتجف ، ولكنه أحس بذئته قوة غريبة تحمل فيه ، فوقف مستبلا وقفة  
الحندى ساعة الخطر . ووقف الكلب أيضا يحدج عدوه بشرر  
عينه وهو يأخذ أهبته لهجمة فاصلة . ومضت لحظة ، والعدوان  
واقفان وجها لوجه لا يتحركان ، كأنهما تماثلان أودع فيهما اللشال  
أقوى معاني التحفز للشر . وكان أن هجم الكلب هجمته الأخيرة ، بيد  
أن الغلام عاجله بحجر شج رأسه ، وترنح « ذهب » ، ثم نكص على

— ٢٠٦ —

عقبه وهو يحاول الهوض والهجوم عودا على بدء ، وقد بدأ الدم  
الفاتر يسدل على وجهه ويسد سترا أحمر أمام عينه . واختل توازنه ،  
فانقلب يتمرغ على التل متدحرجا من أعلاه إلى أسفله .. هناك  
سكنت حركته سكونها الأخير . وحقق الغلام ذاهلا في جنة الكلب ،  
ثم أخذ يتبع بنظره طريق الدم المرسوم على التل من قته إلى أصله  
نخاله بحرأ من الدماء أو طريقا من اللهب . وشعر بتخادل مغاى ،  
يجلس على الأرض يرتجف ، وعلت وجهه صفرة الأموات .

\*\*\*

وسمع د أبو عرب ، ندبا وعويلا منبعثين من خيمته ، وهو  
عائد إليها ، فماله الأمر وتوقع مصابا ، ودخل الخيمة في عجلة وهو  
يسأل : ما الخبر ؟ ... فسكت الجمع وأطرقوا . ودار أبو عرب ،  
بنظره على من حضر ، فوجد أهله لم يغب منهم أحد ، فخرج إلى  
حيث قطيعه يرعى . فلم يجد نقصا أصابه ، ولكنه أدرك أن ذهبه  
لم يخف لا استقباله على مأنوف عادته ، فعاد إلى الخيمة وصاح في  
الجمع :

د أين ذهب ؟ ...

فلم يجبه أحد ... فقال :

د إذن هو الذى تندبونه ١٩ ...

فأوماً إليه أحد أولاده بنعم . فسأل :  
 « ولكن كيف مات ؟ أمقتولا ، أم حتف أنفه ؟ ،  
 فتقدمت إليه زوجته في هواة وأخذت تروى له حادثة مصرع  
 الكلب ، وهو يسمع إليها راجما . ثم مالبث أن أريد وجهه ويذا ؛  
 فما إن أتمت كلامها ، حتى صرخ قائلاً :  
 « أقسم بتربة أبي ثلاثاً لا قتلته ، وبمثل الطريقة التي قتل بها  
 « ذهب ، ... »

\* \* \*

ومضت بضعة أشهر ، ونسى الناس حادثة الكلب . وأخذ  
 « أبو عرب ، يحوم حول القصر في الخفاء ، كلما جن الليل ، وانتشر  
 على الضيعة الصمت والسبات ؛ كما يحوم الذئب حول فريسته المطمئنة .  
 وفي ليلة خرج من خيمته ، ووجهته قصر « عماد بك » ، وهو ملثم  
 بمطرفه الكبير ، يحمل في صدره طائفة من الأحجار المسنونة  
 كانت تثقل خطاه في سيره . وسار متسللاً بحذر . ولما دنا من السور  
 اعتلاد بهمة ، وهبط إلى الحديقة في خفة الهرة ، وتسلق شجرة كثة  
 الأغصان ، وكن بين فروعها . ومن ثم جعل يراقب حجرة الغلام  
 بعيني الصقر الجشع . وكانت الشجرة على مقربة من نافذة الحجرة ...  
 ومضت ساعة ، و« حامد » يدخل الحجرة لآعباً ؛ ثم يتركها إلى

رددة المنزل، لا يستقر له قرار في مكان واحد، فجعل «أبو عرب»  
بداءب الأحجار في قلق.

وأخيرا جاءت الأم بابنها وحملت إلى السرير، ووضعته فيه، ثم  
أشارت له أن يتام، فأمسك الغلام برقبتها وانهاال عليها يقبلها  
ويحتضنها ويهمس في أذنها، فأخذته بين ذراعيها وسارت به تضمه  
وتقبله، وتطيل النظر إليه في خنوع عبادة. وكانت إذا ما انتهت مرة  
عادت تحتضنه وتقبله مرة أخرى...

واعتمد «أبو عرب» في جلسته، وجعل يراقبها باهتمام، وراحت  
الأم تلاعب طفلها في شغف، وتصغى إلى ضحكاته المرححة الساذجة  
كما يصغى الفنان إلى أشهى ألحانه وأغلاها. ثم قامت وهي محتضنة  
إياه، وأخذت تطوف الحجر بخطا هادئة، وتغنى له بصوت حنون،  
والطفل متعلق برقبتها مغمض العينين في طمأنينة عذبة، يردد أغانيها  
ويستزيدها...

واعتري «أبا عرب» وجوم غريب وأحس الضيق يغزو صدره  
وسقط من يده حجر إلى الأرض دون أن يشعر... وبعد هنيهة،  
وقد أحست الأم أن وحيدها قد نام اقتربت في سكون نحو السرير  
وأرقدته عليه، ثم غطته وطبعت على جبينه قبلة هادئة، وخرجت  
على أطراف أصابعها... ونظر «أبو عرب» طويلا إلى الطفل

— ٢٠٩ —

وهو نائم مشرق الوجه هدودا وغبطة ، كأنه ملك صغير ، فابتسم  
مضطربا كأنه يقابل ابتسامة الطفل بمثلها .  
وبغتة شعر كأن خنجرا يطعنه في قلبه ، فهبط إلى الأرض  
مسرعا ، وأخذ يعدو في الطريق عائدا إلى خيمته ، يتلوى اشتمرازا  
وكرها لنفسه ... وما إن وصل إلى الخيمة ، حتى هرع إلى والده ،  
وكان في مثل سن «حامد» ، وأخذه بين ذراعيه وجعل يضمه ويقبله  
في شعف ، والدموع تسح من عينيه ...



# العودة

لأسرة « الحوامدى » ضيعة بالقرب من « بنها » يتوسطها منزل حقير قديم ، إذا ووزن بدور الفلاحين ظهر كبير انخما . تقيم فيه امرأة ارتبطت شخصيتها وحياتها به ، فأصبحت كأنها جزء منه لا يتفصل ، هى : « أم زيان » العجانة التى تسكن الفرن ، وتقوم بحراسة المنزل وتنظيفه . امرأة مجبولة العمر ، قصيرة القامة بحجم نحيف ووجه صغير مكسو بالتجاعيد ، نشيطة فى الخدمة ، لا يهدأ لها قرار . تراها أمام الفرن ، تحرك الأرفعفة ، وفى كرن الدواجن تطعم الدجاج والإوز ، وفى الزريبة تحلب الجاموسة رائحة غالية فى صحن الدار ، وعلى رأسها جرتها التاريخية ، تحمل الماء للماء الأزيار ... وهى فى مشيتها تسير منتصبه القامة ، مرفوعة الرأس ، فى خفة بنت العشرين . وتمز يدها اليمنى إلى الامام وإلى الخلف ؛ كأنها جندى يسير فى حفلة عرض .

وقديم كان « لأم زيان » دار خاصة ، تبيع بالأطفال ، وزوج مجتد طيب ، يعمل لرفاتها ومعادتها ، فكانت تدش سيدة بيتها ، لا تخدم إلا زوجها وأولادها . ولكن هاها لم يدم طويلا ؛ إذ

ناصرها الدهر العدا ، فخر مها زوجها ، عائلها و حامى ذمارها . فكانت فاجعة تحملتها بصبر عظيم ، وعكفت منذ ذلك الحين على العمل ، فاشتغلت أجيرة فى البيوت وفى الحقول ، واشتغل معها بناتها وصبياتها الكبار ؛ ليساعدها على العيش ، ولكنها - لعظم شقتها - فقدتهم جميعا واحدا بعد آخر ، إلى ابنة فى الثالثة عشرة أبقاها لها الموت بضع سنين ، حتى إذا ماتت زوجت ، وأعقب « الغالى » عاجلها القضاء ، كإخواتها وأخواتها من قبل . وهكذا لم يبق « لأم زيان » من أسرتها إلا ذلك الحفيد الصغير الذى تركه أبوه فى عهدها ؛ ليتفرغ هو إلى عمله وزوجته الجديدة . والتحق « أم زيان » من ذلك الوقت بأسرة « الحوامدى » ، فانتقلت هى وحفيدها « الغالى » إلى حجرة القرن ؛ إذ اتخذتها مسكنا لها .

وشب « الغالى » وترعرع فى أرجاء القرن ، فنام على العشب اليابس والحب ، وجبا على الأرض الصلبة واستنشق منذ نعومة أظفاره رائحة العجين والخبز ، واكتسبت بشرته لونا نحاسيا براقا كلون الأرنغفة الساخنة . وكَم من مرة — وهو صغير — دفعه فضول الطفولة إلى ولوج باب القرن ؛ ليتعرف كنه ذلك القرص الأحمر الملتهب ، الذى يتأجج فى الداخل ، فاتشلتته جدته وهو على مقربة من ألسنة النار ، قبل أن يخذو طعنة لها ...

وكثيرا ما غمس يديه في المعجن ، واطنخ وجهه بالعجين ، أو هجم على الأرقعة ، وهى خارجة من النار ، فزق منها ما استطاع أن يمزق ، واكتوت أصابعه بحر ها ، ثم يجلس بعد ذلك ينتحب ويبرد يديه بالماء . وعلى الجملة كان « الغالى » شيطانا من شياطين الإنس ، قد ولى نفسه حاكما مستبدا يصبت فسادا فى مملكة الدقيق والنار ... وقد وهبته جدته عطفها كاملا ، وأورثته حبها القديم لزوجها وأولادها الراحلين ، بل حبها للحياة نفسها ؛ إذ كانت ترى فيه مناط هنائها ، وغاية أملها ، لا تعيش فى الحياة إلا من أجله ...

و « لأم زيان » صبر واستسلام عجيب ، يكاد يكون من خوارق الطبيعة الإنسانية ، مع ما أصيبت به من أرزاء فاجعة لا يرى على وجهها عبوس اليأس ، ولا ثورة السخط ، ولا تسمع من فها كلمة شكاية أو ملل من الحياة . بل هناك بشر دائم طبيعى متألق فى صفاء عينيها المكحلتين ، هو بشر الطمأنينة المستقرة فى قلبها . ولا يذكر إنسان أنه مر عليها ولم يشاهد تلك الابتسامة الخالدة مرتسمة على فها ، تحاول دائما أن تغطيها بذيل خمارها . وإذا رغب أحد فى حديثها وسألها قائلا :

« كيف حالك يا « أم زيان » ، ... »

أجابته بصوتها الهادى . الوقور لإجابتها التى لا تتغير :

« ألف حمد وألف شكر لله ... كل شيء طيب في الدنيا ... »  
 وكثيرا ما يزورها أفراد أسرة « الحوامدى » فى « مستعمرتها »  
 فيجلسون بجوارها أمام الفرن ، يراقبونها وهى تحرك الأربعة  
 بالحراك الحديدى ، أو يدخلون معها كن الدواجن يشاهدونها ،  
 وهى تعجن النخالة وفتات الخبز للطيور ، فيستمعون إليها  
 وهى تردى لهم أشهر القصص وأطيب النوادر والأخبار . أما  
 « الغالى » فقولها كالكلب الأمين ، يروح ويحىء خلفها أينما ذهبت  
 وكثيرا ما يتشبث بذلائل ثوبها إذا رآها تكثر من التنقل ، خوفا من أن  
 يفقدها . وإذا أرادت أن تنخلص منه للتفرغ لعملها ، صنعت له  
 حصانا من أعود الذرة الجافة ، يركبه ويمجى به فى صحن الدار قرحا .  
 ولما « كبر العالى » تجرأ على الخروج من « المستعرة » بمفرده  
 فذهب مع رفقاءه الصغار على الأكوام ، وركب الحمير الطليقة ،  
 وهى تعجن النخالة وفتات الخبز للطيور ، فيستمعون بشغف إليها  
 وهى عائدة إلى حظائرهما . وتصد زاوية الصلاة فى الهجير ليعاكس  
 النائمون من عباد الله الصالحين . وخرج إلى الحقول يرقص ويردد  
 مع فتيات الضيعة أغنيتهن المشهورة :  
 « يا عود الحنيش يا أخضر ، يا مزرع يا مالى الغيطان يا عنى ... »  
 وكم انطلقت « أم زيان » إلى الحقول تبحث عنه ، حتى إذا

ما عثرت عليه اقتادته إلى وكرها ، وهو يصرخ متمردا ، ثم لطفته  
بعود صغير من قصب السكر ، تشغله طوال الوقت بمصه . . .  
ولما اكتمل له من العمر سبع سنوات ، كان يرافق سادته  
الصغار من أسرة « الحوامدى » إلى الحقول ، فيشاركهم فى أكل  
البطيخ والخيار . وإذا أزمعوا نزحه إلى القرى المجاورة ، وركبوا  
الخمير لهذا الغرض ، جرى خلفهم بعصاه يحث بها الدواب على السير .  
وكان « الغالى » لا يرى أباه إلا فى المواسم والأعياد ؛ إذ كان  
أبوه قد انتقل بأسرته الجديدة إلى بلدة بعيدة عن ضيعة « الحوامدى »  
وجد فيها رجلا أوفر . . .

\* \* \*

وحدث أن حل الأب الضيعة على غير ميعاد ، ولما سأله  
« أم زيان » عن سبب حضوره — وكانت قد أوجست خيفة منه —  
أخبرها بأنه يريد أخذ ابنه ليرسله إلى « القاهرة » مخادما فى بيت  
أسرة غنية ، فقد رأى أن الفلاحة فى الريف ليست ميدان الكسب  
الموفر لآبناء هذا العصر . فهناك فى « المدينة » ينشأ الطفل وأمامه  
ألف مهنة يختار منها ما يوافقه . هذا فضلا عن حياة الرفاهية التى  
يتمتع بها أهل المدن . فقالت « أم زيان » حديث الأب بالاعتراض  
وتوسلت إليه أن يبقى حفيدها . فلم يعبا بكلامها ، وأوضح لها فى

شدة أنها إذا ما نعت في أخذ ابنة قضت على مستقبله قضاء مبرما .  
 وواجهها الآن أن تكتم شفقتها في سبيل هناء حفيدها ، وأخذ يتحدثها  
 حديثا طويلا في وصف تلك الحياة الرغدة التي سوف يجيها « الغالى »  
 في « المدينة » ، وفيما ينتظره من مستقبل باهر . فلم تجد المرأة  
 لديها حجة تعترض بها عليه ، وأذعنت لحكم القضاء صاغرة ، كما  
 أذعنت له من قبل . ولكنها بعد صمت مضطرب سألت الأب قائلة :  
 وهل يغيب عني طويلا ؟ ...

— سوف يحى ليراك كل عام ، ويمضى العيد معك . . . .

— وهل تظن أنه يقلح في « المدينة » ؟ . . . .

— كل الفلاح ! سوف يعود إليك بكسوته الإفرنجية وطر بوشه  
 المائل وحذائه اللامع . سوف يعود إليك قتي رشيقا من أهل المدن  
 لا فلاحا جلفا من أهل القرى ... سوف يأتي إلينا محملا بالنقود والهدايا .  
 وتخيّل « أم زيان » ، في تلك اللحظة حفيدها « الغالى » ، في  
 الحلة الأفرنجية الأنيقة ، والطر بوش المائل على « قَوْدَه » ، والحذاء  
 اللامع في قدميه ، معتليا صهوة البغلة ، وخلفه غلام يجرى بالعصا ،  
 فلعلت عينها بدموع الفرح ، ولكنها كانت تشعر في الوقت نفسه  
 أنهم ينتزعون منها جزءا لا ينفصل عن قلبها . فأخذت تبكي وتشفق  
 وهي لا تعرف : أتبكي فرحا لمستقبل « الغالى » ، أم حزنا على فراقه ؟ ...

وتركها بعد ما وعدھا بالرجوع بعد أيام لأخذ ابنه ، فدخلت  
 « أم زيان ، حجرة القرن ، وأقفلت بابها عليها ، وأسندت ذقنها  
 بيديها ، وتاهت في أحلام شتى ، ودموعها تفيض على وجهها .  
 وفي اليوم التالى خرجت قاصدة السوق ، وعادت منه برزمة  
 من المنسوجات شرعت تفصيلها وتخطها جلابيب وقلانس وللغالى ،  
 وكانت تسهر الليل أمام مصباحها بخيط ، وفي حجرها الغلام تهزه  
 وتغنى له أغانى المستقبل البهيجة ، معددة له صفاته حينما يكون سيدا  
 كبيرا ، له شارب غزير مفتول كشوارب الحكام ، وطربوش أحمر  
 زاه كطر ابيض الأمراء ، يهتز زره فى الهواء هزة الخيلاء ، وحذاء  
 ذو صرير عال كأحذية الجنود يسمع صوته من بعيد . وكانت تنظر  
 إليه نظرات طويلة عميقة . ثم تنهال عليه تقبيلًا وضما حتى تزججه ،  
 فيصحو صارخا من النوم ، فتعيده إلى حجرها ، وتلاطفه فى  
 سكون بهزاتها الرفيقة ، تستأنف غناها له بصوت كله نواح  
 وشجن .

وأخيرا سافر « الغالى ، مع والده إلى « القاهرة ، وبقيت  
 « أم زيان ، منفردة فى حجرة القرن ، ومن الغريب أنها عند  
 وداعها لحفيدها لم تذرف دموعا ، ولم يظهر على وجهها أى  
 اضطراب ، بل كانت تضاحكه وتلاعبه ببشاشة ، وتروى له مختلف

الأفاصيص ، ولكنها لما عادت إلى وكرها حبست نفسها فيه أسبوعا كاملا ، خرجت بعد نهايته بوجه شاحب ، يشبه وجه من دفن ثم خرج من القبر حيا . . . .

\* \* \*

ودار دولاب الحياة دوره المعتاد ، فعادت « أم زيان » إلى سابق عملها أمام الفرن تعجن وتخبز ، وفي كنّ الدجاج تقدم لرعيّتها الطعام ، وفي حظيرة البهاائم تحلب البقر وتضع الجبن . ورجعت إليها بشاشتها ، وظهرت على فمها ابتسامتها ، وأخذت تسير مهرولة في فناء الدار كسابق عهدها ، تشتغل بنشاط واهتمام ، إلا أن قامتها انحنى قليلا ، وزادت في وجهها التجاعيد . . . .

فإذا ما جن الليل ، دخلت وكرها ، وأمضت الساعات جالسة أمام الفرن ، ينير وجهها بصيص من نار خامدة ، وهي تحدث « الغلى » متخيلة أنه معها ، تروي له النوادر والقصص ، وتسأله عما يفعل ، وكما يكسب ، وهل لبس الكسوة ، ووضع الطربوش المائل ؟ ... أخيرا تأتي بجلباب من جلايبه وتبسطه في حجرها ، ثم تهزه بخزان ، وتبدأ تغنى له أغاني المستقبل الزاهر ، ودموعها تنهمر من مآقيها .

ومضت السنون ، وكرت الأعياد ، و « أم زيان » صابرة

تنتظر عودة « الغالى » . وكانت تخطط له الملابس وتجمع له النقود وتشتري له الحلوى التى يحبها ، ثم تذهب بكل هذا إلى أبيه ليوصله إليه ، فبدأ خذ الآب هذه الهدايا الثمينة ، ويقسمها بينه وبين أفراد أسرته . وإذا سمعت أن شخصا أتى من « المدينة » هرعت إليه ، وسألته عن « الغالى » ، فيجيبها : إنه على أحسن حال صحة وسعادة ، مع أنه لم ير « للغالى » ظلا في حياته . وكانت أحيانا تتخيل أنه سيرجع إليها بعد أيام معدودة ، وتقول : إن قلبها أنبأها بذلك وتسعين اليوم الذى يصل فيه ، فتجهز له الملابس ، وتصنع له الفطير ، وتجمع له أعواد الليرة ، ليجعل منها خيولا مطهمة . وتطلب من رئيس خدم الدواب أن ترسلوا البغلة للغالى ، على المحطة ، ومعها صبي يحمل العصا . . .

واستمرت « أم زيان » على هذا الحال تشر سنين كاملة ، تحيا حياة الأحلام ...

وأخيرا تحقق الحلم ، وجاء الآب يعلم الجدة بأن حفيدها « الغالى » سيحضر صباح الغد ، فقابلت الخبر بذهول كبير ، فغادها الصواب . ولكن سرعان ما استعادت رباطة جأشها ، وانحلت عقدة لسانها عن سيل منهمر من الأسئلة ، لم يدرك الرجل عن أيها الجيب . . . .

وهرعت « أم زيان » من ساعتها إلى القرن ، فجهزت لحفيدها طعاما شهييا ، وانتقت له من بين أعواد الذرة - التي كان يلعب بأمشائها - عودا متينا أعدته له فرسا مُسْرَجًا . ثم اغتسلت وتكحلت ولبست الجديد من الثياب ، وأمضت الليل كله ساهرة تدور في الغرفة لا تعرف ماذا تفعل ، مع شعورها بأن هناك عملا كبيرا عليها أن تؤديه . ثم قصدت قبيل الفجر إلى الفناء ، وجلست أمام بابه مترقبة ظهور « الغالي » ، على بغلته المظلمة . ولكن النوم عاجلها ، فلم تستفق إلا على حركة البهايم وهي خارجة إلى الحقل ... وأخيرا ظهر أمامها الأب وبجواره فتى في السابعة عشرة ، له وجه نحاسي كالمد ، خشن البشرة ، مملوء ببثور الشباب ، يلبس الجلباب والمعطف والطربوش ، وله ثياب طري . فتقدمت « أم زيان » ، في سكون ، وسألت الأب قائلة :

« ألم يحضر « الغالي » ، يا بني ؟ ... »

فالتفت إليها صاحكا ، وقال وقد أشار إلى الفتى :

« ومن يكون إذن هذا ؟ ... »

فرفعت « أم زيان » رأسها ، وحملت في الفتى طويلا ، والفتى

أمامها يتسم ابتسامة الخيلاء ، ودنت منه وهي تسائل نفسها ،

بصوت مرتجف ، وعينين مخملجتين :

« أياكون هذا هو » الغالى ، ؟ هل هذا ممكن ؟ ... »

فانطلق الأب وابنه يتضاحكنا ...

وتقدمت « أم زيان ، نحو الفتى ، واحتضنته طويلا ودموعها تتساقط على وجهها ... ومن ثم عادت به إلى حجرة القرن وقدمت له الطعام والحلو . وكانت تقص عليه أحداث حياتها منذ فارقتها ، وكيف كانت تفكر فيه دائما ، وكيف كانت تترقب كل عيد أو بته لزيارتها . ثم جعلت تسرد له حديث الطيور والبهائم : ما جدتها منها وما اختفى . ثم استعادت أمامه ذكريات الماضي ، وذكرته بما كان له فى حدائته من صنوف الملاعبات والمعاكسات ... وفى هذه اللحظة وقع نظرها على الحصان المصنوع من أعواد الذرة . فتراجعت ، ونظرت إلى الفتى فإذا به ينظر بتأفف واشمزاز إلى المكان الذى يجلس فيه ، وإذا هو قليل الكلام ، له صوت خشن غليظ ، وحركات شاذة جاقة . فخارت « أم زيان ، فى أمره : كيف ترضية وتدخل السرور على قلبه ؟ ... وقامت مهرولة نحو صندوقها ؛ وبجثت فيه عن شىء يليق أن تقدمه له ، فلم تجد إلا بضعة قروش جمعتها ، فذهبت بها إليه ، ووضعتها فى يده وهى تقول :

« خذ يا » غالى ، هذا المبلغ وابسط به نفسك ... »

— ٢٢٢ —

ففتح الشاب يده وألقى نظرة باردة على النقود . ثم أخذها ووضعها في جيبه ولم يجب . وبعد قليل قام مستأذنا ، وذهب من فوره إلى الحقل لينشد مع الفتيات والفتيان في القرية الأغاني الريفية ، تاركا جدته وحيدة في القرن تحدث نفسها بخجل قائلة :  
« أهذا هو « الغالي » ؟ ... أهذا هو ابني وحبيبي الصغير ؟ ... »  
ولم يعد « الغالي » إليها بعد هذه الزيارة ؛ إذ كان يمضي نهاره لاهيا مع رفاقه ، متقلبا بين الحقل وقهوة المحطة حتى إذا أمسى ذهب إلى بيت أبيه فنام .

\* \* \*

وطال انتظار « أم زيان » على غير جدوى ، ويس الفطير الذي صنعتة خاصة له ... ومرت الأيام وهي تسمع « بالغالي » ، ولا تراه .. وبعد حين دخل عليها الأب ، فوجدها أمام الفرن ، محضنة جلبابا صغيرا من جلابيب حفيدتها الطفل ، وعودا جافا من الذرة حصانه القديم - وهي تقبها ما وتبكي . فعجب الرجل لأمرها . وبادرها بقوله :  
« أتبكين وقد عاد إليك « الغالي » ؟ ... »  
فرفعت رأسها ونظرت إليه باستسلام ويأس ، وقالت :  
« لقد مات « الغالي » من وقت طويل يا بني ... مات منذ غادرنا إلى « المدينة » ... »

## الشحاذ! ...

قل سفتين كنت أسكن في حى الحلبية القديمة ، وكنت أركب  
والترام ، دائماً من المحطة الواقعة عند رأس حارة في شارع القلعة ،  
بالقرب من أحد المطاعم المدية . وقد تعودت أن أرى في أثناء  
انتصاري للترام شحاذاً مبتور الساقين ، يرتدى سترة صفراء قديمة من  
ستر موظفي الترام ، ويلف على طربوشه خرقة نالية . وكان مرآه  
يشير شفة ، وأعطيته كل يوم نصف قرش ، وتوثقت بيننا المعرفة ،  
فكنت أقطع انتظاري بحديث ساذج معه ، عرفت منه أنه كان من  
عمال شركة ، وأصيب بعرض أضاع له ساقيه ، فاضطر أن يستجدي  
ليعوز أسرته . اختار مكانه هذا بالقرب من المطعم البلدى ، إذ  
وجهه أفرح من غيره . وكان يراه المارون والمنتظرون جالساً  
جلسه الحشوع ؛ لا باج سؤال على إنسان ، فيخالونه ولياً صالحاً  
غارقاً في تأملاته الى لا تنتهى . ولا أذكر أنى ذهبت مرة إلى محطة  
الترام ، فلم أجد صديقاً شحاذاً هناك ، وقد تعودت أن أراه في  
مكانه لا يتغير له وضع ولا شكل ، كأنه جزء متمم للحيطة الذى  
يستند عليه ، وطالما نظرت إليه ملياً ، فتخيلته صنفاً مهجوراً من

اصنام قدماء المصريين ملقى منذ مئات السنين فى خرائب والأقصر،  
يحف به جلال الفن ووقار القدم. وذهبت يوما إلى محطة «الترام»  
فلم أجد الشحاذ هناك... وكانت هذه أول مرة رأيت فيها  
مكانه غالبا، فاختلط على الأمر، وظننت أنى ضللت الطريق،  
وقصدت إلى محطة أخرى. ولكن المطعم البلدى أكد لى خطأ  
ظنى وسرت جيئة وذهابا أقطع الوقت منتظرا مقدم الترام، وقد  
استولى على شئ من الأسف والضيق. واتجهت نحو المطعم،  
وسألت صاحبه.

«لم يحضر الحاج بيومى، الشحاذ؟...»

— هذا أول يوم تغيب فيه منذ خمس سنين... أى منذ إنشاء  
مطعمى هذا...

— ألا تعرف السبب؟...

— كلا يا سيدى: مع الأسف!...

وجاء الترام فركبته، وأمضيت بقية اليوم على مألوف العادة.  
وفى اليوم التالى ذهبت إلى المحطة، وبى شئ من القلق، ولكن  
لمحت الشحاذ عن بعد فى مكانه، غارقا فى تأملاته. فسرى عنى، ولما  
اقتربت منه رفع إلى بصره، وابتسم ابتسامة عارضة، سرعان  
ما اختفت ضائعة فى تجاعيد وجهه. ثم طأطأ رأسه من فوره. وقد

لا حظت عليه أنه كان ممتنع الوجه ، عليه مظاهر الإعياء ، فالتفت إليه نصف القرش ، وقلت له :

« لم تجي . أمس يا د حاج بيومي ، ؟ ، ...  
فأجاب وهو مطأطي الرأس ، على غير عادته :  
« كنت مريضاً يا سيدى ا ،

وكان في صوته نغمة حزن ظاهرة ، فقلت :  
لقد حُرمت كسبك بلاريب ...  
— إن الله لا يترك عبده ...

فأخرجت من جيبى قطعة ذات خمسة قروش ، وناولته إياها  
وأنا أقول :

« ربما تجد في هذا المبلغ ، ما يعوض لك خسارة الأمس ... ،  
فرفع إلى بصره الحائر ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وتكلم  
بتلعثم :

« ولكن يا سيدى ... إلى ... ،

وجاء الترام . فتركت الشحاذ يتحدث نفسه بكلامه المختلف المهم ...  
واختفى الرجل يومين كاملين ، ثم ظهر في اليوم الثالث . رأيتُه عن  
بُعد محتلاً مكانه المختار ، فلما لمحتني تحرك زاحفاً يديه . واختفى في  
الحارة ... أراَنى حقاً فهرب مني ؟ ... هذا ما أدهشنى . ولما

وصلت إلى المحطة ، درت يعني هنا وهناك ، فلم أر للرجل أثرا .  
 رضى أسوع ، و د الحاج بيومي ، الشحاذيظهر يوما ، ويحتفي  
 يوما . وكان كلما لمحنى عن بعد مقبلا إلى محطة الترام ، هرب من  
 وجوى . فزدادت حيرتى ودهشتى : ولكنى أقنعت نفسى أخيرا  
 بنفاهة الموضوع ، وقلت : لعل الرجل قد أصابه شيء من الخبل .  
 ثم انقطع ظهوره ثلاثة أشهر كاملة ، فكدت أنساه فيما كل النسيان ..  
 وقصدت يوما إلى محطة الترام ، وما كان أشد دهشتى حينما  
 رأيت الرجل عن بُعد فى مكانه المعروف ، فناجيت نفسى قائلا :  
 د سوف يهرب منى الآن ا ، ولكنه لم يفعل ، بل كان يرقب مجيئى  
 بشغف ، فلما وصلت إلى المحطة زحف نحوى ، وصاحفنى ببشاشة  
 وتهلل ، فمجبث لأمره ، وسلمت عليه سلاما طيبا ، وقلت له :  
 د لقد ظهرت أخيرا يا د حاج بيومي ، ... حقا لقد كانت غيبة  
 طويلة .. »

فأخذ بفرك إحدى يديه بالأخرى ، وهو ينظر إلى الأرض .  
 ثم تكلم قائلا :

كنت أستاذى فى مكان آخر ..

— أكان أكثر رجلا من هنا ؟ ...

— بل أقل جدا ...

— ٢٢٧ —

— وما الذى دعاك إلى ترك محلّك إذن ؟ ...  
فصمت برهة قليلة ، ثم رفع عينيه البراقطين ، وقال باهجه الحزم  
والجد :

كنت أهرب منك ياسيدى ...

— إني لا أفهم مرادك يا دحاج بيومى ، ...  
وجاء الترام ، فهممت أن أركبه ، وقد تبقت أن الرجل مخبول ،  
ولكنه أخذ بطرف سترقى فى لطف ، ورجاه منى فى إلحاح أن  
أستمع له . فعدت إلى مكانى ، وقد أغرانى حب الاستطلاع بإجابته  
إلى طلبه . وتكلم دالحاج بيومى ، بصوت هادى رزين ، وهو  
يداعب لحيته القصيرة ، فقال :

سأخى إذا كنت قد أسأت إليك ...

— لا أشعر بأنك أسأت إلى مطلقا ...

— بل أجرت فى حقك ياسيدى ... اسمع حديثى ، ثم احكم  
على ... ولكن أرجو أن تكون قاضيا عادلا ... أنذكر  
حضورك إلى هذا المكان بعد الظهر بقليل منذ أكثر من  
ثلاثة أشهر ؟ ...

— لا أذكر جيدا ...

— أما أنا فأذكر هذا اليوم ولا أنساه ؛ وحوادثه لن تفارقنى

ماحييت . كانت الساعة إذ ذاك قرابة الثانية بعد ظهر ، وكنت مستديماً للنعاس ، فجئت ونهتني بإحسانك اليومى الكريم : فاستيقظت وقد رأيتك تسير ذهاباً وأوبة ، ستظراً بصبر نافذ حضور الترام . وكنت مطأطئ الرأس تنأمل مواطئ قدمك . ثم أخرجت محفظتك وجعلت تقلب طويلاً ما فيها من الأوراق ، وأنت تنظر إلى ساعتك مرة بعد أخرى . وأخيراً أخرجت ورقة فجعلت تتفحصها باهتمام . وأقبل الترام فى هذه اللحظة ، فاتجهت نحوه بسرعة ، وعيناك لا تفارقان الورقة . . . .

وهنا توقف « الحاج بيومى » ليسبح ريقه ويمسح عرقه ثم تكلم بصوت مضطرب متمتما :

« وطويت المحفظة ، وأعدتها إلى جيبك ، ولكن ورقة مالية سقطت منها وحملها الهواء إلى . . . كانت ذات خمسة جنيات ، فهممت أن أناديك ، ولكن يدي لمست الورقة دون وعى منى ، فشعرت كأن لسانى مسمر فى حلقى . وكنت أراقبك وأنت تركب الترام بعينين زائغتين ، وبدى على الورقة تخفها عن أعين الناس . ولما تحرك الترام ، وابتعد قليلاً شعرت بقوة تدفعنى إلى اللحاق به ، فزحفت باذلاً أقصى ما أستطيع من السرعة ، وأنا أناديك وألوح يدي ليقفوا الترام . ولكن لم يعأبنى أحد ، واختفى الترام

في لحظة ، وجاني ، المعلم عفيفي ، صاحب المطعم ، وقد جمع صوتي ، وأنا أنادي وأصرخ ، وسألني عن أمري فقلت له عل الفور : « لقد كنت أطلب الإحسان من شخص . . . » فنظر إلي متعجبا ، لأنه يعلم أنني لم أحرك لسانى مرة بسؤال . وعاد المعلم عفيفي ، إلى مطعمه ، وسكنت الحركة في الشارع ، وعدت لا أرى ظلا مخلوق . فأخرجت الورقة المألوه من جيبي باحتراس ، وتأملت مليا في خوف وحذر ، وناجيت نفسى قائلا : سوف نأكل اللحم ، وننعم بأطياب الطعام . ولكن بدى ارتعشت ، فأسرت بإدخال الورقة في جيبي ، وأنا أردد قولى بعناد : بل أرد النقوط غدا إلى صاحبها . مكثت نصف ساعة فريسة الأفكار المتضاربة . ولم أستطع أن أزم مكانى بقية اليوم ، فهرعت إلى دارى ، فقابلتنى زوجتى وسألتنى عن سبب عودتى مبكرا ، فانتحلت لها عذرا ، وقصدت ركنا بجوار النافذه ، وأخرجت الورقة من جيبي ، وجعلت أتأملها طويلا ، وأنا أناجى نفسى باختلاط قائلا : سوف نطعم اللحم ، وننعم بأطياب المأكولات . . بل إني سوف أرد النقوط إلى صاحبها . . وأقبل على نى الصغار يقبلونى ، وكانت عليهم أسمال بالية ، تبين تحت تنوعها أجسامهم ، فضممتهم إلى صدرى . وبغته قلت بجرارة : سوف تكتسون غدا بملابس حر زاهية . فنظروا

إلى "حجب وارتباب . وتقدم أكبرهم وقبلنى وسألنى فى رفق :  
أحقا سلبس الملابس الحر الزاهية ؟ ... فقلت : نعم ، وسوف  
تخيطها لكم أمكم . وأعدت كلامى عليهم غير مرة ، حتى اقتنعوا ،  
فهبوا فرحين مسرورين ، وأخذوا يرقصون حولى وهم يتصايحون :  
سوف نلبس غدا الملابس الحر الزاهية . ثم أسرعوا إلى أمهم  
وكانت أمام الدار ، فزفوا إليها البشرى فى ضجة وتهلل ، وقدموا  
بها إلى فأكدت لها الخبر ، وصحت فيهم قائلا : وستملثون بطونكم  
بأشهى الأطعمة ، فرددوا قولى فى هرج ومرج وأقبلوا على  
يستأنفون تقييل والتواب على صدرى ؛ فكنت أقبلهم والدموع  
تغمر وجهى ... وانقضى اليوم التالى على خير ما يزيد . فأكلنا  
أشهى الأطعمة ، واكتسى أولادى بالملابس الحر الزاهية . وفى  
اليوم الثالث قصدت إلى مكانى وقابلتك . ولما سألتنى عن سبب  
غيبتى أخبرتك كذبا بمرضى ، فأعطيتنى خمسة القروش إحسانا .  
بأنه من هذه الخمسة القروش ... كانت تلسعنى فى يدى ، كأنها  
عقرب هاتجة طياشة . فلم أستطع أن أبقيا فى يدى ، ورميتها  
جانبا ؛ وغدت من فورى إلى دارى وأنا محموم أرتعد ، فتلقانى  
أبنائى بملابسهم الحر ، وأحاطوا بى ، وجعلوا يطوفون حولى ،  
فكانها نار الجحيم تحرق بى . فتخلصت منهم ، وانكفأت إلى ركن

من أركان الحجرة ؛ وجعلت أبكى . وارتاع الأطفال من منظرى .  
 وأخبروا أمهم فجاءت على عجل ، فادعيت لها أن مريض ، وأنى فى  
 حاجة إلى الراحة .

منذ ذلك اليوم لم يهدأ لى حال ، كانت لدغة الخسنة القروش  
 ما زالت تؤلمنى . كنت أرى لهب جهنم يتدلح من أبواب أطفالى ، فلم  
 أملك إلا أن أتجنب رؤيتهم ، وأحرم نفسى تقبلهم وضمهم إلى صدرى .  
 وتواصلت عشرة أيام ذقت فيها عذاب الجحيم . وأخيرا اهتديت إلى  
 طريقة كان فيها خلاصى ... عزمت على رد نقودك إليك . . . . . وسألت  
 زوجتى عما فضل من المبالغ ، فأخبرتني أنه لم يبق شيء ، فقد كست  
 نفسها ، وكست الأطفال معها ، وقضت بعض الديون ، وخزنت شيئا  
 من المثلثة للنزل . إذن على " جمع المال الذى بددناه كله . لا بأس . . .  
 هذا ما استقر عليه رأي . ولما كنت قد أقسمت ألا أراك إلا بعد  
 أن أحصل على المال ، فقد هربت إلى مكان بعيد أستجدى فيه .  
 وجاهدت فى الاقتصاد ما استطعت ، فتقشفت فى حياتى فوق تقشنى  
 الدائم ، وأخلفت وعودى لأولادى ، وأغضبت زوجتى . ولكنى  
 كنت راضيا عن نفسى ، وبدأت أتذوق حقا طعم الهناء . وكانت  
 ملابس أطفالى الحر الزاهية لا تخيفنى ؛ لأننى كنت أجمع ثمنها لأعيد  
 إليك وما قد جمعته كله ، حرام على " حلال لك . . . .

وأخرج من جيبه صرة معدودة ، لم يلبث أن حملها ورفعها إلى  
وهو يقول :

« خذ مالك يا سيدي ، خذه وأرحني أراحك الله ! »  
فنظرت إلى الصرة المفتوحة ، فوجدتها خارقة قدرة تحوى جمّة  
كبيرة من قطع النقود المختلفة من المليم إلى الريال ، ورآني « عم يومي »  
أحرق في الصرة ولا أمد يدي نحوها ، فقال :  
« لقد عددت اليوم ما في الصرة ، فوجدت المبلغ كاملا لا ينقص  
مليما واحدا . خذه عدّه هنا أمامي إذا شئت ... »  
وكنت مأخوذا بما سمعت ، أنظر بذهول تارة إلى الرجل ،  
وطورا إلى صرة النقود ، ولا أعرف ماذا أصنع ؟  
فنهني الرجل بقوله :

« سيدي ... إذا لم تأخذ نقودك فسوف أرميها في البئر ...  
سيكون نصيبها العدم ... خذها وأرحني أراحك الله ،  
فعددت يدي ، وتناولت الصرة في صمت ، ووضعتها في جيبى ، ثم  
شدت على يده ، وأنا أغغم :

« أنت رجل كبير النفس يا « عم يومي » ، ... »  
وسرت مطأطأ الرأس ، وأنا أفكر فيما سمعت وفيما رأيت ... »

— ٢٢٣ —

وكان صديقى راوى هذه القصة يحسنى قهوته ويدخن لفافته  
فالتفت لى به ، وقلت :

« أمثال هذا الرجل قليلون يا صديقى ... »

ثم نظرت إلى ساعتى فوجدتها الرابعة ، فقلت :

« إن ميعادنا مع صديقنا د سليم ، فى منتصف الساعة السادسة .  
أمامنا متسع من الوقت ، أليس عندك مارتويه لى غير هذه القصة ؟ »  
فنظر لى دخان لفافته ، وقال :

أذكر حكاية من عهد التليدة ... أيروقك أن تسمع شيئا يتعلق  
بذلك العهد ؟ ...

— يروقى جدا ... وما موضوع الحكاية ؟ ...

— الفطار العشر ...

— ماشاء الله ... هات ما عندك ...

فلم يغير صديقى جلسته ، وكان ينظر دائما إلى دخان لفافته ،  
وبدا يتكلم قائلا :

« فى يوم من الأيام عاقبنى معلم الحساب أنا وزمىلى د روف ،  
بحرماننا طعام الغداء - الذى كنا تناوله فى المدرسة - وقصصنا على  
الخبز الحاف . وكان من نظام المدرسة أن يدخلوا المعاقبين بالخبز  
الحاف فى حجرة الطعام نفسها مع بقية الآكلين ، ويقوم صفا

بحوار الحائط ، ثم يوزعوا عليهم الأرزفة لي شعروهم بذل الموقف  
وكان عقاب الخبز الحاف يؤلمني أكثر من أي عقاب آخر ، فكنت أدير  
ظهري لموائد الأكل مواجها الحائط ، مضربا عن أكل الرغيف ا  
والثفت إلى زميلي دروف ، فوجدته يقضم أطراف رغيفه ،  
ويتبادل هو والآكلون المداعبات الفكهة بين فترة وأخرى ، فلت  
عليه ، وقلت :

ما رأيك في الذهاب إلى الحلواني بعد خروجنا عصرًا من  
المدرسة لنأكل الفطائر اللذيذة ؟ ...

-- هذا ما فكرت فيه أنا أيضا ...

-- لإننا لم نخترم شيئا كبيرا ... هل نأسف على حساء العدس  
السكريه الطعم ، أو على طبق الخضر المسلوقة ؟ أو على قطعة اللحم  
النيسة ؛ كما هي من المطاط ؟ ...

— أو على نقيع الشمس المدود ؟ ...

وامتلات في هذه اللحظة خياشيمنا برائحة طيبة ، هبت من الموائد  
القرية ، قضم زميلي رغيفه قضمه جبارة ، وازدردت أنا  
ربنى في سكون ... ثم عاودت الكلام فقلت :

سوف آكل عند الحلواني عشر فطائر ... عشر فطائر بتماها ...  
-- وهذا ما عزمت عليه أنا أيضا ...

وكان العصر ، فخرجت من المدرسة مصطحبا صديقي «رءوف» ،  
 ميممين محل الحلواني وكنت أشعر بخلو معدتي ودوار رأسي ، فأذكر  
 «شهر رمضان» وتشبني بالصيام فيه وبعد وقت قصير ، وصلنا وأخذ كل منا  
 صحيفة وشوكة ؛ ليبتقي الفطائر التي تطيب له . وكان من عادة الحلواني  
 أن يحاسب العملاء بعد أكلهم ؛ ثقة منه بهم . ورآني قريبا «مراد» ،  
 وكان خارجا من المحل ، فناداني وجعل يحادثني برهة بجانب الباب  
 ثم ودعني بعد ماضية بي ، وكاد يزهرق روحى . وانجهت نحو «رءوف» ،  
 فالفيتة قد انتهت من أكل فطائره ، ودفع حسابه ، فتناولت فطيرة ،  
 وجعلت ألتمها بلذة وشغف ، وأدخلت يدي في جيب صدري ؛  
 لاستوثق من وجود نقودى ، وجعلت أعدها قرشا قرشا ، فوجدتها  
 سبعة قروش ، فالتفتُ إلى صديقي ، وقلت :

لا أكل إلا سبع فطائر فقط . . .

— ولم ذلك ؟ . . .

— لأنى لا أملك إلا سبعة قروش . . .

فنظر إلى بنجبت ، وغمز لى بعينه ، وقال بصوت منخفض :

بل يمكنك أن تأكل ما تشاء وتدفع لهم ما تشاء . . .

— ماذا تقصد بذلك ؟ . . .

— لا تدق فى الحساب . . . لأنهم لا يعدون الفطائر التي تأكلها . . .

— ٢٢٦ —

فتوقفت عن أكلى ، ولم أتم فطيرتى ، إذ شعرت بغصة تسد  
حلقى . . . ووضعت الصحيفة جانبا ، وقلت لرفيقي بصوت متهدج :  
وهل فعلت أنت ذلك ؟ . . .

— طبعاً أكلت عشر فطائر ، ودفعت ثمنها أربعة قروش .  
فقبضت على ذراعه ، وقلت بغضب :  
أنت تفعل ذلك يا « رءوف » ؟ .... اذهب وادفع ما بقى من  
حسابك . هيا . . .

— أنت أبله ... ليس معى نقود مطلقاً . . .  
ثم تركنى وسار بجوار الباب ، وهو يرمينى بابتسامة كريمة ،  
فقصدت من فورى إلى أمينة الصندوق ، وقلت لها :  
لقد أكلت يا آنسة سبع فطائر ، وهذه سبعة قروش ثمنها . . .  
— متشكراً . . .

ولما اقتربت من الباب ، نظر إلى « رءوف » بنجل وارتباك ،  
وسألنى قائلاً :  
ماذا فعلت ؟ . . .

فلم أعره نظرى ، وخرجت وأنا أشعر بالشمزاز وتقزز . . .

## المهْدَى المنتظر!!...

د عم متولى ، بائع اللب والبول السودافى والحلوى بائع متنقل  
يعرفه سكان د الحلية ، وما يجاورها من الجهات ، يسير بعيمته  
البيضاء الطويلة ، وجلبابه الواسع الآكام ، تعلوه الهية ، وقد حمل  
على ظهره قُسْفَتَه العتيقة ، وهو ينادى معددا الأطفال أصناف بضاعته  
بلهجة السودانيين ، بصوت أضعفه الفقر والهزم ، إلا أنه لم  
يزل محتفظا بنبوة الأمر ، فقد نشأ الرجل فى السودان . وحارب  
فى صفوف المهديين برتبة قائد فرقة . وقد عاش طول عمره وحيدا  
ليس له زوجة ولا بنون .

وهو يسكن حجرة صغيرة مظلمة فى عطفة د عبد الله بك ، ،  
لا تحوى من الأثاث غير صندوق عتيق ، وحصير عليه لحاف  
ووسادة باليان . وعلى الرغم من مظاهر فقره المدقع ، فإن النظافة  
تحوطه وتحوط كل ما يملكه .

يثوب الرجل إلى بيته مضنى من شدة التعب ، وبعد أن يؤدى  
فريضة العشاء ، يشعل مصباحه الزيتى الضعيف النور ، ويجلس قبالة  
صندوقه ، ويخرج منه سيفا قديما ، فيضعه على ركبتيه ، ويسبح فى

تأملانه الطويلة ، مستعدا ذكريات حياته الماضية ، فإذا ما مرت على خاطره ذكرى « المهدي » رفع بصره إلى فوق ، وأخذ يدعو الله أن يقرب أيام الرجعة ، أيام العودة المنتظرة للمهدي - رافع لواء الدين حيث يحل في الأرض فيطهرها من فسادها . ثم يخفض بصره . ويمسح لحبته المخضلة بالدموع ، يأخذ السيف فيقبله بشغف عظيم . ثم يقوم إلى عشائه ، فإذا ما فرغ دخل فرائشه ، ولا يمضي عليه وقت طويل حتى يستغرق في نوم مطمئن يحلم فيه بماضيه الآخر ، ومستقبله الحافل بعودة المهدي . وفي الفجر يقوم فيؤدي صلاة الصبح حاضرة ، ثم يقرأ في أوراد « الجنشاني » ، وكتاب « دلائل الخيرات » . حتى إذا ما أرسلت الشمس أشعتها مخترقة نافذته الضيقة ، قام متمهلاً حاملاً قفته على ظهره ، ووجهته « الحلبية » ؛ ليلبدأ طوافه اليومي المعهود .

وهكذا كانت حالة منذ هبط « القاهرة » ، لخسة عشر عاماً خلت ولم يغير شيئاً من نظام حياته ، هُدمت منازل ، وأقيم غيرها ، ومات أناس ، وكبر أطفال ، « وعم متولى » ، ولا يعرف من « القاهرة » وضواحيها غير الجهات التي تعود أن يطوف بها . له محلات استراحة في الطريق ، هي محطات يتناول فيها طعامه ويجلس فترة . وقد خص اثنتين من هذه المحطات بمعظم أوقاته . فراغه فالأولى : مسجد

صغير ، يتناول طعام الغداء بالقرب من بابه ، فإذا أتمه حمد الله طويلاً ودخل المسجد ف صلى فيه ونام . أما المحطة الثانية فبالقرب من منزل « نور الدين بك » ، في « السيوفية » يقصدها دائماً بعد صلاة المغرب . هناك بجوار باب القصر يجتمع حوله لعيف من يواي المنازل المجاورة ، وخدم منزل « نور الدين بك » ... فيتحدثون عن الإسلام في غابر مجده ، وكيف حلت به الرزايا . هنا يقوم « عم متولى » مشرق الجبين ، فيروى للجمع حديث « الرجعة المقبلة » بلهجة متزنة مهيبة ، وأسلوب نفاذ قوى ، يأخذ بمجامع القلوب ، فإذا اجتمع كله خاشع مبتهج ، يستمع في إقبال وتطلع لذلك الولي الجليل ، وهو يتحدث عن ظهور « المهدي » وتطهير الأرض من مفاسدها ، وعودة الإسلام إلى سالف نظمته . في ذلك الوقت يخرج « نور الدين بك » من باب منزله متوكئاً على عصاه النخيلة ، فيتقدم نحو « عم متولى » يحنيه ويلاطفه ، ويغدق عليه عطية ، ثم يفارقه وهو يسعل سعال الأبهة والكبرياء .

ويأتى « إبراهيم بك » - نجل « نور الدين بك » - وهو شاب مهذار لعوب . في السادسة عشرة من عمره - فيقترب من « عم متولى » ويصبح به قائلاً :

أما زلت تروى وقائع الحروب وحوادث « المهدي »

« عم متولى ، ... »

« -- أرويا وافتخر بها ... لقد كنت قائداً لآلاف عسكري ! ...  
 فينبهة ، « إبراهيم بك ، ما فيه ، ثم يعتدل في وقفته متظاهراً  
 بالخشوع ، ويزور سترته ، ويصلح طربوشه ، ويرفع يمينه إلى رأسه  
 بالتحية العسكرية ، ثم يخرج قرشا من جيبه ويدفعه إلى « عم  
 متولى ، قائلا :

« أرجو منك أن تعطيني قليلا من اللب والفول السوداني بقرش  
 صاغ يا جنرال ، ... »

\* \* \*

في عصر يوم من الأيام ذهب « عم متولى ، إلى منزل « نور الدين  
 بك ، ، فجلس بجوار الباب على عادته ، وأخذت الأطفال تهرع إليه  
 لتشتري من بضاعة كما تفعل دائما ، وانطلق الخدم يقدون إليه من  
 مختلف الجهات ، وابتغون حوله صفوفا متراسة ، حتى إذا انتظمت  
 حلقة الاجتماع ، وقف « عم متولى ، يحدث الجميع حديثه المعبود . وبينما  
 الجميع يستمع مشغوعا بأقواله الساحرة : إذ أقبل « إبراهيم بك ، وصاح :  
 « يا جنرال ... »

فتوقف الخطيب عن الكلام ، وحول الناس نظرم غاضبين  
 نحو الفتى المهذار ، يستوضحون الأمر . وتقدم « إبراهيم بك ، غير

مكثرت بمن حوله ، وأنتم كلامه قائلا :

«... والذى يريد أن يرنك ، فأرجو منك أن تتبعنى ! ..»  
 فأסף الحفل لهذه المباغثة ، وخرج «عم متولى» من الحلقة ،  
 حاملا قفصه على ظهره ، ومشى مشيئة الحادثة متجها نحو الباب ،  
 بعد أن شج أتباعه المخلصين بمنظرة مملكت واعتذار . وتبع  
 «ابراهيم بك» إلى حديقة القصر ، واخترقا معاطيرها طويلا ينتمى  
 عند مدخل المنطرة<sup>(١)</sup> حيث كان «نور الدين بك» ينظرهما جالسا  
 على مقعده الكبير . فأقبل «عم متولى» مسلما فأجلسه «البك»  
 بحواره على الأرض بعد أن صرف ابنه ومضت فترة صمت صغيرة  
 كان يردد أثناءها «عم متولى» بصوت خافت شكره لله وصلاته  
 على النبي . وأخيرا تكلم «نور الدين بك» فأخبر «عم متولى» بعد  
 مقدمة قصيرة أن السيدة الوفور والدة كثير من المصحات بأخباره  
 وصفاته ، فأجبت أن تعرف إليه ، لتستمتع بأحاديثه الدينية الجليلة  
 وتواريخه الشائقة عن الإسلام . فاختلج قلب «عم متولى» سرورا  
 لما علمه من أن شهرته قد اخترقت جدران المنزل ، ووصلت إلى  
 آذان السيدات ربات الحدور ، وقام «نور الدين بك» متجها نحو  
 جناح الحرم ، وسار خلفه «عم متولى» واخترق كلاهما ممشى

(١) هي المروقة «بالملك»

عريضا ، وولج بابا باضخما ، يوصل إلى حديقة السيدات ، ثم صعدا  
درجات شرفة مظلة ودخلاردهة عظيمة لم يكديطاد عم متولى «  
عنتها حتى سحرته نخامتها ، فامتلا قلبه بالروعة والخشوع ، إذ أنه لم  
يرحى فى قصر « المهدى » قاعة تماثلها اتساعا ونخامة ، وفيما كان  
« عم متولى » مستغرقا فى دهشته طرق سمعه صوت تسوى ضعيف .  
يرحب به ، فالتفت ناحيته فألقى ربة الفصر جالسة غير بعيدة منه  
تدخن على متكأ كبير ، بجوارها تابعة واقفة ، فإذا بها سيدة مقوسة  
الظهر ، بمجدة البشرة ، تضع النظارات الذهبية على عينها ، وتلبس  
لبسوسا قاتما . فتقدم نحوها وقبل يدها النحيلة ، ودعا لها بطول العمر  
ودوام الخير . ولما تم . التعارف بينهما تركهما نور الدين بك ، وخرج  
لشأنه . وتكلمت السيدة فأظهرت « لعم متولى » سرورها بمقدمه ،  
ورغبتها فى سماع أحاديثه تخفف من الرجل من بصره ، وأخذ يجمع  
فى فكره رواياته وحوادثه ، ثم رفع رأسه ، وبدأ يفيض بما عنده  
بلسان طلق ولهجة مؤثرة خلبت لب السيدة . فلما أتم حديثه غمرته  
بمطاء كبير لم يكن يحلم به ، وأحاطته بضروب من الإجلال أذهلته  
وأخجلته ، فخرج ولسانه يردد كلمات الشكر والولاء لها ولاسرتها .  
وماكاد يضل إلى حديقة الحريم ، حتى أقبلت عليه طائفة من  
الخادومات ، أخذن يحمن نحوه ، ثم جملن يتبركن به ماسحات

أيديهن بجلبابه ، وطلبن منه أن يبيع لهن شيئا من بضاعته ، فجلس على الأرض مغتبطا ، وفتح قفته العتيقة ، وأخذ يبيع لهن حتى نفذ كل ما عنده . فقام من فوره إلى الجامع وصلى أربعين ركعة ؛ شكرا لله على عطيته الجزيلة .

• • •

منذ ذلك اليوم أخذ « عم متولى » يقصد دار « نور الدين بك » ، حيث يُقابل فيها بالترحاب والإجلال ، وتُعدق عليه النعم الوفرة . فتغير حاله ، وصار يمشى مشدود القامة ، لا يتكلم إلا بصوت جهورى . واستأجر غرفة حسنة الموقع ، جديدة الأثاث ، واستبدل بالجبن والكرات والفجل : الأرز والخضر كل يوم ، واللحم مرتين في كل أسبوع . واستطاع أن يضحخ عمامته ويطلها ، وأن يوسع أكمام جلبابه ، وأن يلف حول كتفه مطرافا من الكشمير الرخيص ، أن يحتذى المركوب الأحمر اللامع ، ويتمنطق بالحزام الحريري نى الهداب الطويل . ثم ترك رويدا حرقه البيع ، وتخلص من حياة لطواف المتعة ، ونعم بالنوم الطويل الهنيء ، وجعل يتصدق على الفقراء بالعطايا الطيبة ، فعُرف بينهم بنصير البائسين . وأمكنه أن ذهب إلى المساجد في أوقات فراغه ، ليحضر دروس الوعظ الإرشاد ، فيتسنى له أن يلقيها بعد ذلك على مسمع من الهانم والدة

؛ فزور الدين بك .

وذاع صيته في الحى ، فتهامس الناس به ، وجعلوا يتناقلون أخباره . لقد اختفى شيخ « عم متولى » بائع اللب والفول السودانى ، رجل الفاقة والضعف ، وحل مكانه « الدرويش الكبير » . . .

\* \* \*

وبينما كان رهط من أتباعه جالسين أمام دار « نور الدين بك » منتظرين حضوره ، تكلم أحدهم قائلاً :

« أنظرون يا جماعة أن « عم متولى » رجل صالح فقط ، يحسن التحدث عن الإسلام فى أسلوبه البليغ ؟ . . . »  
فسأله أحدهم :

« إذن من تظنه يكون ؟ . . . »

فأجاب الرجل فى تحمس :

« إنه ولى من أولياء الله . . . قطب من الأقطاب العظام ! »

— ومن أعليك ؟ . . . »

— آدم النظام فى عينيه قليلاً ترنورا غريباً يشع منهما ، وهذا

دليل الولاية . . .

ثم تحنح وقتاً ، وانحنى عليهم بهمس :

« لقد حدث لى معه حادث لم أخبركم به خشية ألا تصدقونى !! » . . . »

— ٢٤٥ —

فقال الجمع وقد تدانوا حوله :

« تكلم ... ! تكلم ... ! »

كنت أسير معه مرة في حارة « سيدى شاويش » ، والوقت مساء لا ينير الحارة إلا مصباحان من النقط نورهما خافت ضئيل ... وبغثة هب الهواء شديدا فأطفأ المصباحين وإذا نحن في ظلمة حالكة ، فاعترائى جزع مفاجيء ، وأمسكت يد « عم متولى » وشددت عليها . فغمغم : لا تخش شيئا ، نحن في حماية الله ...

وبينما الجمع يصغى لحديث المتكلم : إذ بدا رجل من الحلقة ، وأنشأ يقول :

« الآن ييسر لى ، وقد سمعت حديثكم ، أن أجبر بما أعله  
عن ذلك الولي الصالح الذى عاشرناه كثيرا ، ولم نعرف من حقيقة  
شخصيته إلا قليلا ... »

فحول الجمع أنظارهم إليه ، وقال له أحدهم فى شوق وتطلع :

« وماذا تعرف من شخصيته ؟ ... »

فقال الرجل بصوت حيس ، وقد احتقن وجهه :

« إنه المهدي ... المهدي المنتظر ... »

فاشرأبت الأعناق للرجل ، وتهاوس الناس :

« المهدي ... المهدي المنتظر ... »

— ٢٤٦ —

وتابع المتكلم حديثه بلهجته السابقة ، وصوته يرتجف انفعالا :  
 « لقد شاهدت سيف النبوة في صندوقه ، ولما لمستته بيدي  
 استطعت أن أشفى ولدى ، ولدى الذى عجز الأطباء عن مداواته  
 وكان على شفا الهلاك ... »

واندفع الناس يتسابقون في سؤال الرجل ، وانطلق الرجل  
 يجيبهم في إسهاب وتفصيل .

وكثر الالغط ، وازدحمت الحلقة بجموع جديدة جاءت تسأل  
 ما الخبر ، وتصغى إلى حديث المتكلم عن سيف النبوة وكرامة  
 « المهدي » الذى بعثه الله ثانية هاديا للبشر .

وظهر في ذلك الوقت « عم متولى » من بعيد ، ولحج الحشد ،  
 فبدأت الجلبة ، وأسرع الناس يوسعون له طريقا بين صفوفهم  
 المتراسة .

وجاء « عم متولى » يسير بمشيته المستدة في جلال ووقار ،  
 ويتسم لمستقبله ابقسامته الحلوة الهادئة ، نخشع الناس من حوله ،  
 وأقبلوا عليه متزاحمين ، يقبلون أنامله وأطراف وشاحه .

وتقدم الرجل الذى لمس سيف النبوة وقال :

« يا مولاي ! يا منقذ ابني من الهلاك ! لقد عرفناك بالرغم  
 من تسرك ، فأنت « صني الله » بعثك سبحانه لهداية البشر ، أنت

— ٢٤٧ —

خليفة النبي ، أنت « المهدي المنتظر » ،  
فحدثني « عم متولى » في وجه الرجل مدهوشا ، وقال :  
« ماذا تقول يا رجل ؟ ... أ أنت تهذي ؟ ... »  
— لن تستطيع إخفاء شخصيتك الكريمة عنا بعد اليوم ، نعم  
أنت « المهدي » ، خليفة النبي ، وحامل كلمة الحق بين الناس ...  
— اسكت ... اسكت ... فليس لي هذا الشرف  
العظيم ...

— ألم تشف ابني من الهلاك ؟ ...

— أنا ؟ ...

وتقدم الرجل الذي روى حادثة الحارة المظلمة ، وقال :

« ألم تستر الحياة بوجهك المضيء ؟ ... »

— أنا ؟ ... أنا ؟

وقال المتكلم السابق :

« إن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - زارني في الرؤيا ،

كشفت لي عن شخصيتك ... »

فهمهم « عم متولى » في صوت ضعيف ، وقد استند إلى

نخس بجواره :

« أبو بكر الصديق كشف لك عن شخصيتي ؟ ... »

ولاذ بالصمت وقتنا ، وهو يحرق أمامه ؛ ثم أخذ يقول في  
صوت المحدث نفسه :

« يا أولادى !... المهدى رجل عظيم ، أجل منى وأكبر...  
ما أنا إلا عبد صالح من عباد الله... »  
ولم يطل جلسته ، بل عاد إلى داره مبكرا ، وهو غارق في  
أحلامه...

ولم يكذب يتنفس صباح اليوم التالى ، حتى سمع « عم متولى ، طرقة  
على بابه ، فقام يستجلى الخبر ، فإذا هو برجل معصوب الرأس ،  
هزيل الجسم ، يدنونه ، ويتعلق بشيابه ، ويئن مستعظما :  
دعنى المس سيف النبوة من يدك الطاهرة :  
— سيف النبوة ؟... —

— خلصنى من آلامى يامولاي ... أشفق على مريدك الضعفاء -  
يا خليفة النبى العظيم . . .  
وأدخله « عم متولى ، داره ، وأبقاه فى رعايته اليوم كله ، وهو  
يقرأ على رأسه طائفة من الآوراد . ولما دنا المساء أرقده بجواره ،  
وسيف النبوة تحت رأسه .

وطلعت شمس اليوم التالى على الرجل المريض ، فألقى نفسه  
منشرح الصدر ، وفور النشاط ، على حالة من الصحة لم يمهدها من

— ٢٤٩ —

قبل ، فقام إلى « عم متولى » وأهوى على يديه يشبعهما لثما ، وصوته  
يجار بالشكر والدعاء ...

ومضت الأيام ، فأصبحت دار « عم متولى » كعبة الناس من  
كل صوب ، يفصدونه استشفاء من أمراض أبدانهم ، ووساوس  
نفوسهم . وقل « خروج » عم متولى ، من منزله . فكان يقضى فيه  
جل وقته تائها فى أحلام لا نهاية لها ، فإذا صبحا من هذه الأحلام  
أخرج سيفه ، ووضعته على ركبتيه ، ثم انطلق يحدق فيه بذهول ...  
ويوما رأى « عم متولى » السيدة الجليلة والدة « نور الدين بك »  
تأتى لزيارته فى حفل من توابعها ، وما إن شاهدته حتى ركعت  
أمامه خاشعة ، وأخذت بذيل جيبته ، وجعلت تقبلها وتقول :  
« يا خليفه النبی العظيم ! ... لقد جئتك خاضعة ذليلة ، أطلب  
رضاك ! ... »

\*\*\*

منذ ذلك اليوم حبس « عم متولى » نفسه فى حجرته ، لا يبرحها  
قط ، وكان تارة يستقبل زواره ، وطورا يقفل باب الحجره بالفتاح  
ولا يدع أحدا يقربه ، ويجلس مسندا ظهره للحائط ، ويسبل  
جفنيه . ويقضى على هذه الحال ساعات طوالا ، ثم يهب بغتة من  
ضعفته ، وهو مضطرب محموم ، فيجر دسيفه من غمده ، وينطلق طاعنا

ألهواء هنا وهناك ، وهو يقفز في الغرفة صائحاً بالشياطين أن  
 اخسئوا . ويظل كذلك حتى يسقط على أرض الغرفة فاقد الوعي  
 وكثيراً ما سمعته الجيران يصبح هذا الصباح ، فيعرفون أن  
 الولي الصالح في ساعات خلوته ، يناجي أسرار العظام ، فيتجمعون  
 حول بابه مرهفي الأذان ، تسرى في نفوسهم الروعة والإجلال .  
 وظل دعم متولي ، على هذا الحال بضعة أسابيع .

وكان أن شوهد مرة يخرج من حجرته مهرولاً ومشعث الشعر  
 وعيناه متقدتان كالجمر المسعر ، يلوح بالسيف يمنة ويسرة ...  
 وانطلق إلى القهوة القرية ، واندفع يخطب بسيفه في الجالسين ،  
 ويصرخ فيهم أن اختفوا أيها المردة الخاسرون ... فتألب عليه  
 الناس يمنعونهم .

وخر الرجل أخيراً بين رجال الشرطة ، وهو يهتف في صوت  
 ضعيف قائلاً :

« الحمد لله ، لقد أدت رسالتى . وأتممت جهادى ... »

وتخاذلت قواه ... !

## حَارِسُ الْجُرْنِ ! ...

أعرف « الشيخ جمعة » منذ كنت طفلاً صغيراً ... منذ كانت الأيام لهواً ومسرة . منذ كانت الحياة هبة خيالية من قساوة العقل أعرف « الشيخ جمعة » منذ ذلك العهد . وهو على حاله لم تتغير ملامحه ، ولم يتبدل حديثه . أعرفه وقد كان يروي لي قصة « سيدنا سليمان » وما جرى له مع النسر الهرم ، الذي عاش ألف ألف سنة . تلك القصة التي مازالت أسمدها منه الآن بتفاصيلها وعباراتها ، فأذكر عصر الطفولة الجميل ، عصر السذاجة الطاهرة . لقد كبرت ونما عقلي ، فأصبحت أجالس « الشيخ جمعة » لآلهير بوقتي معه ، فأستمع لقصصه الخرافية ، بلذة مصحوبة بهكم ، وكنت فيما مضى أجلس فبالته وعيناي تخلفتان في وجهه — ذلك الوجه المخطط بالتجاعيد — أرقب شفثيه الهادتين ، ترسلان الألفاظ فكأنها السحر الحلال . ولم أكن أقابله إلا مرة في العام ، وذلك حينما أذهب إلى الضيعة لأقضى بها وقتاً للراحة . وقد مرت السنون الطوال ، وتغير كل شيء على الأرض ، إلا « الشيخ جمعة » ، فهو هو ، الرجل ذو العمامة الحمراء ، والجلباب الواسع الأكم . هو ذو العينين البراقتين ،

والابتسامة العذبة ذو المشية المتمهلة ، والصوت الرقيق ... هو الذى يقوم من النوم مبكرا ، ميمما صوب الجامع ؛ ليؤدى فريضة الصبح قبل شروق الشمس . وهو الذى يقضى معظم نهاره فى المصلى الواقع على شاطئ الترعة ، يسبح ويقرأ الأوراد ؛ ويؤدى الفرائض .

إلى ذلك المصلى كنت أذهب ، فأجلس بجواره وأستمع له ، وهو يقصّ على حكايات « السيد البدوى » الذى حارب الجيوش ، قبل أن يولد . وقصة جذوة النار التى طارت من جهنم وحلت بأرضنا منذ آلاف السنين ، فأرسل الله عليها ماء البحور كلها لتطفئها وتمنع أذاها ، وهى مازالت متأججة كما كانت ، تنذر الناس بشر عظيم . لأنسى إلى اليوم تلك النظرة المملوءة بالاسترحام وذلك الوجه المستعطف الباكي ، وهو يقول :

« إذا كانت جذوة النار الواحدة لا تستطيع بحور العالم جميعها . أن تخمدتها ، فكيف تكون جهنم التى أعدت للكافرين ؟ »  
و كنت أحمل له فى بعض الأوقات « كتاب ألف ليلة وليلة » ، وأقرأ له حكاية « السندباد » ، وحكاية « مدينة النحاس » . فكان يصغى فى شغف إلى حديثي ، وابتسامته العذبة تترقق على وجهه ، وإذا ما قرأت له قصص « هارون الرشيد » قال :

« هذا ملك من ملوك الإسلام حارب الجن والإنس معا... »  
 وإذا ما رويت له من شعر « أبي نواس » أو « عمر بن  
 أبي ربيعة » في الغزل ، قال :

« هذا شعر سيدى « عبد الرحيم البرعى » يمدح الحضرة الإلهية ،  
 يسمع الشعر ، وهو مأخوذ بطلاوته وورثه رويته ، مسجود بما  
 فيه من المعاني التي كان يحملها دائما على محمل التمجيد لله عز وجل ،  
 فيتهزأ به ويتلوى خصره حينما ترن الكلمة الخلافة في أذنه ... »  
 فإذا سافر « الشيخ جمعة » إلى « القاهرة » يزور الأولياء كان  
 ميته في منزلنا . وكثيرا ما كنت ، أطلبه بالإجابة عن أسئلة علمها  
 بعيدة عن أفق تفكيره ، فكان يجيب عنها في سذاجة وسهولة  
 عظيمتين .

قلت له مرة ، وكان الوقت مساء ، وقد أشرت إلى مصباح كهربى  
 أمامنا :

« انظر يا « عم جمعة » إلى هذا المصباح الجميل ، وكيف يضيء  
 وينطفئ بهذه السرعة الغريبة ، ألا ترى ذلك دليلا ساطعا على تقدم  
 الإنفنج ومهارتهم ؟ ... »

فلبث مليا ينظر إلى المصباح ، ووجهه المشرب بحمرة العافية  
 لا يمتلج ، ثم قال :

« اعلم يا بنى آت هذه أسرار يعلمها الشياطين ، ولا يعلمها المؤمنون . والشياطين توحى بأسرارها للكفرة ... إن لهم الدنيا ولنا الآخرة . . . . »

ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء ، وهو يقول :

« الحمد لله الذى جعلنا من المؤمنين . . . . »

ولم يكن يفارق المنزل أثناء وجوده فى « القاهرة » ، إلا ليزور المساجد وضرائح الأولياء . أو ليشترى الصابون والبن والسكر لزوجته . وكان إذا دخل الجامع يهرع إليه الناس من كل صوب وفتح يقبلون يده ، ويلتفون حوله يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل الدين ، فيجيبهم ويفتهم فى طلاقة ويسر .

لقد كان « الشيخ جمعة » ، فيما مضى خفيرا لجرن الضيعة ، يحمى الغلات من اللصوص ، ويقرع الصفيحة بمكازته العتيقة إرهابا للعصافير وكانت له ظلة من فروع الأشجار ، أقامها بجوار شجرة النبق الصغيرة يتفأ ظلها . فتقيه مطر الشتاء ، وشمس الصيف . هناك ينام نوما هادئا طويلا ، معتمدا على الله فى حراسة الجرن ، فإذا صاحبا ، وجاء وقت الأصيل ، قصد إلى الترخة ، وجلس على حاقها يراقب نساء بلده ، وهن يملأن جرارهن ، فيبادلن ألوان الأحاديث ولد « الشيخ جمعة » ، أوقات صفو كثيرة يتمتع فيها نفسه فيطرب

للغناء ، ويلتذ بسماع المزمارة ذى الصوت الحنون .. وعندما يحمى  
وطيس الزمر والغناء . ويشد نقر الطبول ، يقوم « الشيخ جمعة »  
تمتلكه النشوة ، فيرقص فى غيوبة وصمت ، ويده رافعة عكازته  
تلوح بها فى الفضاء .

والرجل حديث عن أيام شبابه لا يمل السامع . فكثيرا ما انطلق  
يصف هذا العهد ، ووجهه مشرق بتلك الذكريات الخالية ، وعيناه  
تلمع فيهما أحلام الفتوة والصبا ، يفيض فى ذلك كله بتلك السداجة  
الريفة الصافية . فإذا ما أتم حديثه تهد من أعماق قلبه ، والابتسامة  
العذبة تنضال رويدا على شفثيه ، ثم يقول فى حسرة :  
ويا الله حسن الختام . . . .

## الفهرس

### الصفحة

١	— دنيا جديدة ١	٣
٢	— شيخ الخفر . . . . .	١٥
٣	— المستعين بالله . . . . .	٢٧
٤	— تأمين على الحياة ١	٦٩
٥	— ذات اللثام . . . . .	١١١
٦	— الشيطان يلهو ١	١٤١
٧	— الجزاء ١	١٨٩
٨	— أم ١	١٩٧
٩	— أبو عرب :	٢٠٣
١٠	— العودة . . . . .	٢١١
١١	— الشحاذا . . . . .	٢٢٣
١٢	— المهدي المنتظر ١	٢٣٧
١٣	— خفير الجرن . . . . .	٢٥١



مفتزم الطبع والنشر  
مكتبة الآداب وطبعتها بالجاميزت ٩١٩٢٧٧  
٤٩ ميلك الأوبلا - شب ٩٢٠٨٦٨  
الطبعة المنصو جيت  
٦ ملكة الشابورج بالحلمية الجديدة